

شريف بن حبيلس



الجزائر الفرنسية

كما يراها احد الأهالي

ترجمة الأساتذة
عبد الله حمادي
فيصل الأحمر
وسيلة بوسيس



el musk editions

شريف بن حبيلس

ريالة لا ملأ لمار لمار قيسانفا لمار لمار : نا لمار

ريالة لا ملأ لمار لمار قيسانفا لمار لمار : نا لمار

الجزائر الفرنسية

ريالة لا ملأ لمار لمار قيسانفا لمار لمار : نا لمار

ريالة لا ملأ لمار لمار قيسانفا لمار لمار : نا لمار

كما يراها احد الأهالي

ريالة لا ملأ لمار لمار قيسانفا لمار لمار : نا لمار

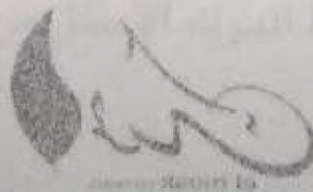
ريالة لا ملأ لمار لمار قيسانفا لمار لمار : نا لمار

تكملة لمار لمار قيسانفا لمار لمار : نا لمار

عبد الله حمادي

فيصل الأحمر

وسيلة بوسيس



العنوان: الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأمازيغ

تأليف: شريف بن حليل

ترجمة: عبد الله حامي - فيصل الأحمر - وسيلة بوسيس

رسمك: 978-9961-928-35-6

الإيداع القانوني: 5384-2012

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين.
بمناسبة الذكرى الخمسين «50» لعيد الاستقلال

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة



" شرف فرنسا ومصلحتها يجبراننا على الاعتراف بضرورة
تكوين المغلوب "

" إن ضرورة المعرفة لا تستوي في أبدا ، فإذا تخيلنا عن الأمر فإن
الشعب المغزو سينهض بنفسه ، ثم يختلق تكويننا ، وتربية يتماشيان
مع آماله ضد آمالنا "

" ريمون اينار "

العمل الفرنسي في الجزائر

" لا بد من العمل الدؤوب على زرع بذرة مزدوجة على هذه
الأرض الإفريقية شقها الأول قوة فرنسا وشقها الثاني فكرها ،
القوة التي تعوض نفسها تلقائيا والفكر الذي يقنع الغير ، هذا هو
واجب كل مسلم "

" أيها المسلمون ، لا بد من الشروع في العمل حالا ، فلا مهرب
من الاعتراف بأننا بلغنا الدرك الأسفل من أسفل أنواع الانحطاط... "
" بن موهوب "

" إن فرنسا تدعو بصدر رحب وعقل راجح كل من يعيش تحت
سلطانها كي يساهم بما لديه من فكر وقوة ، فلا يجب أن يكون

ثم إن رأيي في هذا المقام ليس عظيم الشأن، فأراك هو المنتظر ظهوره إلى الضوء لا رأيي، وذلك عين العقل يا صديقي. فقد تحليت بما يجب من الكفاءة وتحليت عما يجب من الانفعالية ونظرت فأصبت، أنت الذي تكونت بعمق في مدارسنا ومعاهدنا، أنت الجزائري حتى النخاع، أراك أتيت هنا بخلاصة ملاحظات عميقة وأديت آراء خالية من التعصب ومن كل انفعال يفسد المنطق. فكيف يمكننا أن ننصت إليك؟

كيف لا نأخذ آراءك بعين الاعتبار في حين تكلمنا عن عالم نعرفه بقدر ما نفل بعين غته ؟ ومن سيكشف عن خبايا زوايا هذا البيت خيرا مما تفعله أنت الساكن داخله في حين لا ترى نحن سوى جدرانها ذاية أحلام تسكن الفلاح، تحت برنوسه، وهو جالس أمام المقهى العربي على قارعة الطريق؟ وماذا عن ذلك البائع الذي ينتظر زبونا قريبا، دون أن يرغب في الأمر حقيقة ؟ وآية عيون وما طبيعتها، تلك التي ينظر بها صوب مهارتنا الثقافية ؟ هل يبدو لهم أكثر إضرارا منا نفعاً وأكثر جنونا منا عقلاً؟ وحقد العدو الذي يلاهم، ترى هل يذهب بهم حد الرغبة في رؤيتنا تغادر هذه الأرض التي استثمرنا فيها جهودا كثيرة ؟

أنتم يا صديقي العزيز، وأمثالكم ممن رغبتنا في إشراكهم في مهمتنا، هم الوحيدون الذين يمكنهم أن يجيبوا هذه الأسئلة، بكل صراحة.

بواسطة ثقافتكم، التي تأتي لتدعم أصلكم، تتمون لما يمكن أن نسميه بكل شرعية " نخبة الأهالي ". إنها تسمية شرعية كما تعلمون. وهي تسمية تصف بالضبط ما يتعارف عليه الجميع من صفات " النخبة "؛ والمقصود طبعاً اتصافها بصفات أوربية معينة، التي هي مكونة من بعض المحامين، بعض الأطباء الأشراف، وجيش هام من الصحفيين المهرة. كدت أنسى أكثرهم جدارة بالذكر، المدرسين الابتدائيين الذين هم واعون بالدور الحاسم المنوط بهم وبالمسؤولية الكبيرة التي ألقتها فرنسا على عاتقهم حينما جعلتهم يشغلون المحل الذي هم يشغلونه دون أدنى مسألة. إنهم يضيفون إلى النقاش حماساً خاصاً يقلل تارة أوار الاندفاع المولع، وتارة حموضة الأحقاد.

إن النخبة التي تتمون إليها والتي تبدو لي عنصراً حاسماً في الربط بين الشعبين متشبعة بالثقافة العربية دون أن تكون منفصلة دون التكوين الفرنسي، إنكم على معرفة حميمة بما أنجزه كتاب عصركم الذهبي، دون أن تجهلوا ما أنتجه مؤلفونا من الأعمال الممتازة، دراية بالكلمات والتعابير الجميلة التي اخترعها

أسلافكم، والأفكار الثيرة التي خلفها أسلافنا. ستجد، للحديث
عن فرنسا لإخوانك الأقل حظاً، تلك الفصاحة التي يمكنها أن
تسحر حتى الأكثر جهلاً من بينهم، كما ستكون لك نصاعة
الذهن وبقاء البصيرة التي لنا إذا جئنا تشرح ما يعتمل يصدر هذا
الأخير وإخوانه لك كل التقدير على أنك وفقت في الجمع بين
هاتين الخصلتين في كتابك. ^{فإنه يفتقر في نفسه إلى ما يجعله}
ولكن الشكر كل الشكر لك وحدك، لأنك تمكنت من
ذلك بفضل حسنات هي لك وحدك، خاصة بك لا بغيرك : المنطق
حب الحقيقة، إنك يا صديقي العزيز "ذهن فذا"، ولا أقوالها كما
يقولها المتعلقون والرسميون على أيامنا بل أقوالها بلسان مفكري
وكتاب القرن السابع عشر. ^{فإنه يفتقر في نفسه إلى ما يجعله}
إنكم لتحكمون بفعل وإنصاف على متجزات الإدارة
الفرنسية، سوف لن تبالغوا في تهويل ما يمكن أن يتقص هذه
الإنجازات كي تكون على أحسن وجه، إنكم تصفون لنا المفعول
الحسن لأمر لا بفناً يتحسن مقارنة مع ما هو عليه في أماكن أخرى
وما كان عليه قبل الحملة الفرنسية. ثم إنكم تسلطون الضوء -
إلى جانب الصراعات التي لا بد منها أثناء تموقع الشعوب الفرنسية
على الأراضي القبلية - على محاسن هذا النمط الجديد من العمل
الذي يؤيده عمال مختلفة ديانة بعضهم عن ديانة الآخر وأصل هؤلاء

عن أصل هؤلاء عن الأصل أولئك، وأعلى من أن هو بطيب ليقم الجوار
الحسن للكوخ والمزوعة إنكم تتحدثون لنا تصفونكم ملاحظنا
فذا، عن المدارس التي لا تنتظر الحكومات وإنما كي يتكاثروا
وتزداد كثافة ومن اقتناع فلاح، جبال الناجور، استجاعة التكوين،
وهو اقتناع لا اختلاف بينه وبين ذاك المغروس في رضى الفلاح
الفرنسي، ثم إنكم تشرحون جيداً ميكانيزمات البلديات
المختلطة. مصورين أمام أعيننا صورة الإداري، هذا الإله المهيمن مع
طيبة، العجيب مع حكمة، الخفي مع ظهور في كل مكان، وفي
الوقت نفسه. ثم ترصدون دون تحيز تربية للأعوان من الأهالي،
هؤلاء "القياد" الذين يحملون نكهة زمان. وإذا كان العديد منهم
ناجعا وأعيان ضاحي الضمير فإن عدداً لا بأس به منهم ليسوا سوى
ورثة الإدارة التركية بكل ما فيها من تعصب ومحسوبية.
ويبعد أن تقلبوا لنا البرنوس العنابي الشريف كي نرى ما
بداخله، تفضحون أيضاً البرنوس الترابي بلطافة وخفة محدثين إيانا
عن عامة الناس، من خلال رسم بورترية لمحمد مبارك "البروليتاري
"ضحية نظام الخماسين الذي أكل عليه الدهر وشرب، وضحية
طبيته التي لا تعمل للفرد حساباً، وضحية المقرضين الذين ينهشون
لحمة تحت عيون مفتي المسلمين.
فيس له في وجه
ن اسمك فسمعه يمينه

ثم تأتي صورة التمدن الذي يعبر أمامنا: البورجوازي الغيور
على إنسانية العتيقة والعدو التلقائي لكل تطور. ثم ابنه الشاب
الجميل المتكبر الجاهل والأحمق الذي لا يجرجر حين يمشي في
الشوارع سوى رضاه عن نفسه وهو لا يفعل شيئاً سوى الاعتناء
بلباسه الأبيض.

إن نظرتك التي يزيد بها عمقا تكوينك الأوروبي ونظرتك
المتعاطفة، لتتفقد وتنحصر المجتمع المسلم المحيط بك فتكشف
عن أعضاء ميتة وقوى معطلة.

أخيراً، ولكي تحدثنا عن الشباب الحي الذي يطمح لبناء
المدينة الجزائرية المستقبلية تجد نبرة صريحة تنسينا تماماً النوايا
السبئية المبيتة التي عودنا عليها جدلهم.

بفضلك يبتعد شعب الأمة الإسلامية - إن كانت موجودة -

فتنشئ نحلهم بعد أفضل. فنرى يوماً مضيقاً يحمل للبعض نظرة
أكثر انتباهاً وأكثر خائناً صوب حاجات الآخرين، ولهؤلاء يحمل
قلنا أقل من المظالم التي تعودوا أن يلهجوا بها ومن المخاوف التي
تسكنهم على غدهم، وتحمل لهؤلاء ولأولئك ثقة متبادلة أكبر،
والإرادة التي لا بد أن تمتلئ بها كي تزودنا بـ "السلام على الأرض"

جورج مارسيه

مدير مدرسة تلمسان

الجزء الأول

لا بد من الإقرار بأن برنامج بن موهوب بسيط جدا، بسيط
حد التمييز. لا بد من الإقرار أيضا بأنه ليس ممن يعالجون الأمور
الحرجة بذلك التفاؤل الذي يملأ أروقة مجالسنا الجزائرية. ويمكن
تصديقي هنا، لأنني أنطلق عن دراية وسابق معرفة. كما أنه بعيدا
جدا عما لا يلهج سوى بالظلم وغياب العدالة والتفاوت في الأرباح،
ويدعو لسياسة العنف.

إن آراءه تشق طرقها بين هذين القطبين المتطرفين. لقد تعلم
من دروس التاريخ أن تربية شعب ليست أمرا يتم بين عشية
وضحاها، وأن الثورة الفكرية والاجتماعية لأمة " بلغت أدنى وأحط
درجات التقهر " ¹ عمل يتطلب جهود قرون عديدة.

معارية الجهل بواسطة المدرسة، وترك الباقي لمفعول الزمن،
هذا هو الرأي الحصيف لهذا الرجل الذي ضحى - إلى الآن - بنصف
عمره من أجل تحرير إخوانه.

صحيح أن هذا البرنامج برنامج جامع. وضعية الأهالي،
الحاكم الرادعة، الإنعاش المادي للأهالي، مجتمعات الوقاية،
والقرض الزراعي، البنوك الشعبية، والنقابات المهنية، وغير ذلك،

كل هذا سيكون محلولا، وفي أقرب الآجال، بمجرد إنشاء
مدارس!

إن حدة مشكل الجزائر الذي تطرحه العلاقات بين الشعوب
المتعاملة والمختلطة في المستوطنة، لن تخفى بتطبيق هذه التدابير،
بالتأكيد، ولكنها ستقل وينقص أوارها.

كثيرة هي المشاكل المحلولة، وكثيرة هي الحواجز والعوائق
المذلة من خلال تطبيق هذا البرنامج المدرسي الشاسع، والجدير
باستنهاض كل الهمم، وتحريك كل الإرادات وكل الطاقات.

وفي بوتقة الآراء والأفكار، ووسط ضجيج الأصوات المتجاورة
والمتناوشة حول مسألة الأهالي، حبذا لو أن بعضا من البرلمانين،
الكتاب، الناشرين ورجال الأعمال سواء أكانوا من مناصري
الأهالي أو من معارضيهم، يعودون صوب عملية التقريب بين
العنصرين، كتأسيس مدارس جديدة، ذلك العمل الذي يزن أكثر
بكثير من كل الخطب الملقاة.

وقبل كل شيء، يبدو لي شخصا، أنه قد كتب الكثير، لا
أن المشكل المطروح لا يستحق كل هذه الأهمية، بالعكس،
فمسألة الأهالي مسألة حياة أو موت بالنسبة للإعمار وللغلبة

الفرنسية في شمال إفريقيا. أقول أن كتاب هؤلاء وأولئك على حد سواء، يطبعها التحيز والعنف والكراهية.

إن الحكمة الفرنسية القديمة تقول لنا: إن صدام الأفكار جالب للثروة هناك الجزء كبير من الحقيقة هنا. ولكنني أعتقد أن بحث الشراكة لا يمكن أن تكون على أيدي الصم والعمي.

في كل هذا الجدل الذي يستمر منذ أربع سنوات، بين الذين يدافعون عن تواجد وغلبة فرنسا، وبين الجزائريين المدافعين عن إخوانهم المسلمين المقترض كونهم مضطهدين. أعتقد أنه كان هناك الكثير من التعصب، وكثير من الحماس المحلي، وكذلك من النوايا السيئة، فتارة يتم وصف معمر خبيث، يهتم بالجزائر أكثر من اهتمامه بالأرض، أو ناشر عديم الضمير، أو موظف خفي أو مغل بالواجب، أو مسمي للنظام، وغد، مضاد للفرنسيين، إسلامي مشبوه أو ثوري تركي، هذه التسمية التي راجت حد الجنون، وتارة يتم وصف مطربش ثائر ما يتشدد بكون الأهالي ليسوا سوى قطع كبير يسيره إداريو البلديات المختلطة بالسياسة، صوب ضياعه الأكيد.

الأعجب من هذا، أن تهم الجماعتين تجد دائما مصداقية، ليس فقط على الطرف الآخر من البحر، بل هنا بالذات، أين

يمكننا أن نتأكد من صدق ما يقال، ووثقة ما يحدث، يبدو أن الجماعتين، تحت عطاء الانحياز الأصم أصبحتا تمتثلان حينها لكي لا توبأ شيئا وأذنبها لكي لا تسمعنا صوتا فمن الواضح إذن أن هناك، في هذه الآراء، حماسا أعنف بكثير من إمكانية منح فرصة التحصيل حتى للمعنيين بالأمر، بل حتى للأهالي العادية المستقيمة لذلك، هنا أكثر مما هو عليه الأمر في أي مكان آخر، فإنه خطير جدا اتباع هؤلاء السياسيين في مهاوي نقاشاتهم المتناقضة، إذا كنا نريد أن نمحط النظر لإدراك الحقيقة الغاية ستفيد الجميع معرفتها في الواقع الأمر.

نحن الملاحظين المستقلين، أبناء الأهالي، الذين عشنا وسط الأهالي سواء تحت أكواخ جبال البابور العتيقة أو تحت مقوف المتمدن " الحضري "، نعتقد أن هناك فائدة أكيدة في إصدار حكم عام حول الإنجاز الفرنسي والإدارة التي اضطلعت بالمهمة العسيرة التي هي تكوين وتعليم إخواننا وكذلك حول وضعهم المادي والفكري هم بالذات كما هو الحال في السنة المباركة 1913.

هذا الحكم هو الاعتراف المتواضع لأحد الأهالي الجزائريين الشباب، والذي تمت تربيته على مدرجات مدرسة فرنسية، شاب

يحب النعت الجميل "فرنسي" الذي تلحقه به الإدارة الفرنسية،
شاب يعتقد جازما أن فرنسا هي التي قادته صوب طريق "الحق"،
فلا هو يريد أن يكون منتقدا مشنعا لمن أحسن إليه، كما هي
حال بعض ناكري الجميل، ولا هو يريد أن يكون متلمق أقوياء
للرحلة النية هي فقط، التعبير عن إحساسه بالجميل. فهو يريد أن
يقع لبنه على البناء الضخم الذي توصل الجمهورية الثالثة -
شيء من حماس المتسرع أحيانا، وكثير من التجاعة في أكثر
الأحيان - تشييده على الأراضي الجزائرية.

صواء أخاطنة، متسرعة، ذات ثغرات، أم ليست كذلك،
سكون هذه الشهادة حاملة للاستحقاق الذي لا ريب فيه الذي
تشيد به بصوت عال: الحقيقة والصراحة.

الفصل الأول

"الأمن"

بادئ ذي بدء، ما هي عملية المصالحة بين الأفراد التي شرع فيها؟ ليست عملية بل عمليات، وهي عديدة ومتنوعة. وربما تكون أكثرهم ذكرا من قبل الجميع، جاهلهم وعالمهم، غنيهم وفقيرهم، كلهم يمدحون الإنجازات في الجانب الأمني.

منذ أجيال كثيرة والجزائر عيش حقيقي للأشجار وقطاع الطرق والقراصنة، ولم نعرف استتباب الأمن إلا منذ أن صارت أرضنا فرنسية.

قديمًا، كان السطو والعدوان والمعارك الزاد اليومي لكل القبائل ولكل المقاطعات، باشاغا الحصنة على خلاف مع باشاغا المجانة، وهذا الأخير بينه وبين جاره في الأوراس جزازات، ومن القالة إلى بني صاف لا يوجد مقاطعتان حاكما هما على وفاق ووافق.

الفوضى، الفوضى، الاضطراب، تلك هي حال المسلمين الفعلية في شمال إفريقيا وذلك وضعهم الاجتماعي في ظل وصاية الحكومة التركية المجزأة لكي لا نذكر سوى آخر حكومة عرفت هذه الأراضي.

إن التاريخ يخبرنا بالكثير في هذا الصدد. فلنسا بحاجة، في الحقيقة، لإجراء دراسات معمقة كي نرى أن التجارة والزراعة كانتا منعومتين. فلماذا يزرع الفلاح أرضه إذا كان مصير الفلة السرقة والنهب؟ ولماذا تتاجر إذا كانت الأموال المحصلة تؤول أجلا أو عاجلا إلى خزائن الحكم؟ ويجب بالموازاة أن نذكر بأن هذه الحالة قد استمرت مطولا حتى بعد دخول الفرنسيين إلى الجزائر، إما بسبب العجز على مستوى أدوات الردع والحماية، وإما بسبب سياقات دبلوماسية معينة. بو عكاز بن عاشور حاكم فرجوة، مثلا، واصل - حتى يوم تهجيره - ممارسة حق القتل على رعاياه. فكان يحدث أن يرمي بمعينه في واد بوصلاح لمجرد غيابهم عن الاجتماع مثلا.

من يا ترى سيكتب التاريخ الكئيب لأولئك المساكين الذي ذبحوا دون أدنى محاكمة لا لسبب سوى أنهم - مثلا - أعجبوا إحدى "حوريات" قبيلة الطاغية، إنه ل يبدو لعابر بعض المناطق أن صوت أولئك الضحايا المساكين مختلط بشكل ما بخير المياه.

القصص تنقل عن بو عكاز أنه ذات يوم - وقد أخذ مكان الجلال - أراد قتل أحد فلاحين بني مجلد متهما إياه بالعصيان. استحضره كالعادة طليق اليمين وحدث أنه ساعة رميه في الهاوية تثبت بأثواب الحاكم فكاد يجرجره منه في الهاوية لولا أن أسعفه رجاله وأعاناه، فما كان منه نتيجة لذلك إلا أن قرر رسميا أن يوضع الضحية وسط كيس مغلق قبل تقديمها لتطبيق الحكم بالإعدام.

إن من عايشوا فترة ذلك الوحش الذي زرع الرعب في قلوب سكان تلك المنطقة التي تعد من أخصب المناطق في ضواحي قسنطينة، لزالوا يرتعشون لمجرد ذكر اسمه. سنجد كثيرا من شهود العيان ممن يحدثوننا عن فترة سابقة - ويحضرني هنا أحد الأجداد بلغت به السنين سبعا وتسعين، كان قديما من الخدم - فترة كان يمكن للمرء فيها أن يسافر بمائة من البهائم محملة كلها من ميلة إلى سطيف، ويمكنه ليلا أن يقبع في أي مكان وسط الحقول في انتظار الفجر لمواصلة السير. سنجد من يشهد بذلك، وشهادته حقيقية، إلا أن هذا لا يمنع كون بو عكاز أكبر لصوص المملكة وأخطرهم.

نديم للأهالي - نتيجة لذلك - أن ينظروا بعين الحسرة فنوب
 تلك الفترة لا طبعاً وحتى هؤلاء الذين سيقولون دفاعاً عن
 اخوتهم في الدين أن المقارنة بين وضعنا قبل 1830 وبعدها، تجعلنا
 نستجيب تفوق الدولة القديمة، هؤلاء ليسوا سوى مزيقين للحقائق
 وكذا لا يمكن تصديق آرائهم - وبالموازاة فإن تعداد حوادث
 السخرة والسطو وبناقي الجزائ، ورصد كل شاردة وواردة من
 الحوادث، ثم إلحاق مسؤولية ذلك بإخواننا البرلمانيين ذوي الميل
 منسوب الأهالي، كل هذا لن يكون أمراً خالياً من شر كامن ونية
 سيئة مبيتة وحضم مسبق غير عادل. قال بونو Bonnot وجماعية
 غارنييه Garnier ليسوا من أهالي الجزائر. ومن هذه الزاوية
 بالبر، لا يوجد فضل لأحد على الآخر، الفرنسيون والإيطاليون
 من جهة والأفراك من جهة أخرى يقفون في هذا الموقف على قدم
 المساواة.

من أي علو شئنا ننظر إليه، يبدو المجتمع البشري حاوية
 الطامع الفاسدة دائماً. أما فيما عدا هذا الاعتبار فإن أية حكومة
 تغيز عن ضمان الأمن والسلامة لرعاياها تصبح محل انتقاد
 فطبعي من قبل أي ذهن واع عادل. هذا الأمر لا نقاش فيه.

كما إن الذين يكثرون اللجاجة وهم يعدون الجرائم ويخصون
 الحوادث أو الجحجح معقدين، أنهم يكلمون بمصالح فرنسا ولا يفتلون
 سوى الإضرار بها في الحقيقة. وبذلك لا يحسنون حسابهم
 على مثل حسن حفظهم أو حسن خطبتهم الحقيقية غير ما يقولون. أنهم
 يضخمون أحداث الحوادث، يلم شتمها وتعددها، في الوقت نفسه على
 القوائم بنفسها. أما الحقيقة فهي أن مصدرة الجرائم لا يروا إلى
 الانتصاف، وأن الجحجح تتخالف إلى القلة لا بالكثرة. لذلك نقول أن
 استتباب الأمل، وظل الحديث، أهم الإنجازات الفرنسية على هذه
 الأصول. كما أن بالهؤلاء ما رتبوا فينا، بل هو الأهم
 بالإضافة إلى الامتيازات الاقتصادية التي جلبها الاستقرار
 الأمي، فإن الأهالي أصبحوا يكون بسبب هذا الأخير عظمة الدولة
 الفرنسية، سبب من أسباب الإعجاب بالنسبة إليهم، وهو تمهيد
 جيد لتخلق غاشقة النجب بدلاً من الإطعاب، حيث هذه التي محتهم
 وضعا آمناً مستقراً، لذلك فخدمة الأمن والعمل على استتباب
 الأوضاع واستقرارها هو عمل على إدماج إخواننا وتكليفهم
 واستيعابهم. كما أن الحسنة زالت له زكياً بقصدنا، ويستحق علينا
 الصلة وولجته الآن أن يفتننا من علم هؤلاء الذين يتوكل عليهم في
 خدمة الأمن والحفاظ عليه، والشهيد الذي استقران هذا عليه، لا الهدي

الفرنسيون والأهالي مسئولون معا عن هذا الأمر، ولكن الإدارة الفرنسية تبقي عرضة للانتقاد في هذه النقطة، لأن العمل نفسه يجازي للأسف الشديد بأجرين مختلفتين ...

وانها لظلمة أن الأوان كي تصحها. خذوا مثلا الشرطة البلدية لأية مدينة جزائرية، ولننظر عن كثب إلى ما يتقاضاه الموظفون المنتمون إليها، محمد بن علي الموظف المتحمس الذي يحبه ويحترمه رؤسائه ومسؤولوه، ويتمون به ثقة كبيرة تفوق ما يتمتع به زميله الفرنسي فرانسوا ألبيرزي، ومع ذلك فالميزان المالي يميل جهة هذا الأخير إن التفضيل الذي يتمتع به الأهالي جاء بفضل العمل الدؤوب، في حين الأفضلية المالية التي للفرنسي على صاحبه لا شيء يبررها، والوضع نفسه يعانيه أعوان الدرك من الأهالي وكذلك الموظفون الإداريون.

لماذا هذا الظلم؟ الإجابة يملكها مواطنو هذا البلد في الحقيقة.

المعمر العامل سيقول طبعاً أن المؤسسة بحاجة إلى تعديل، سيملي عليه تفكيره المنطقي بأن ما كان صحيحاً بالأمس لم يعد كذلك اليوم، سيقول أنه على المؤسسة أن تعبر عن امتنانها تجاه خدمتها الأوفياء الذين لا غنى لنا اليوم عنهم.

أما المعمر المستيس فسيقول إن الموظف الساكن الأصلي يعيش حياة بسيطة وإن حاجاته ليست كحاجات الموظف الأوروبي، وبعد سبعة سيكون النقاش قد أتم دورته الاعتيادية بين المبررات المكررة المعتادة سيقول لمن يبرز التفاوت بنمطي معيشة مختلفين: الأجور محكومة بالجهود المبذولة، والتفاوت في الضرائب مقبول لسبب بسيط هو أن الجهود الفرنسية على هذه الأرض من طرق ومدارس، وسكك حديدية، وقصور بنتها، من أسواق، وثافورات، ... كل هذا له ثمن، لذلك لا ينكر الساكن الأصلي أن ظروف العيش الأفضل هذه تحتاج إلى تضحيات منه لأنه لفائدته هو بالدرجة الأولى.

التفاوت في الحقوق، لا أحد يقبله، لا نحن ولا حتى أنتم، على كل حال سوف تعود لمعالجة هذه النقطة. أما العمل نفسه فيقتضي الأجر نفسه، هذا هو المبدأ الأساسي الذي على الإدارة أن تنطلق منه وتعمل به وهي تحدد أجور عمالها.

وقد تم تطبيق مبدأ المساواة هذا في بعض الإدارات بنتائج جيدة محصلة ونجاح لا ريب فيه. الرجال لا يتم تسييرهم إلا من زاوية مصالحهم الخاصة، قد تتسرع ونحن نجزم أنه منذ مدة، يلاحظ تفضيل واضح للعمال من الأهالي وتغيير أكيد لوجهة النظر صوبهم، إنه خير دليل على نوايا الإدارة الحسنة ونيتها في مواجهة أخطائها

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا هذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

[illegible]

الفصل الثاني

"التعمير"

إنجاز آخر من إنجازات المصالحة التي نحن بصددتها، والتي لا يستهان بها هو التعمير، ففي الحقول تحت أمطار الشتاء وبرده القارص، أو تحت سياط الحر الصيفي، يتم عموما الاحتكاك بين العمرين والأهالي ويتم التعايش السلمي، ولا يوجد مكان آخر يتم التعايش فيه بمثل هذا الشكل ولا بمثل هذه الخصوبة.

في هذا الأمر لا توجد نقاشات مشعبة، طوال النهار تتضافر الجهود بكل أخوة من أجل قلب وجه الأرض، وفي المساء، متعبين ومرهقين، يتفرق الرجال كل صوب ناحيته بعد تبادل سلام على النمط العربي، وبعد مصافحة قوية تليق بالفلاحين، لن تجد مكانا آخر يذيب الحواجز بين هؤلاء وأولئك أكثر من هذا المكان، فالمصالحة المشتركة والمصير المتقاسم يجعلان تقاليد العمل وسيرته أهم من كل اعتبارات أخرى.

كل شيء مشترك بين هؤلاء الرجال الذين وضع القدر بعضهم إلى جانب بعض، بمجرد احتياض المطر مثلا، تجد هذه الوجوه التي خالف بينها الزمن والمكان، والتي جعل مصير السلاح بعضهم قبالة

بعض تجدها مذكورة الإكتفاء بنفسه . . . وبمجرد هزيم الرعد - أيام الحصاد - تجد الوجوه التي يختفي بعضها تحت الخوذة وبعضها تحت "الباش" مغمضا بعضها إلى بعض والقلق يثبثها ويجعلها تلتفت جميعا صوب السماء، يعيون مفتوحة كلها تتساءل طيلة ساعات الهزيم عن كل هذه الشساعة.

إنها الاستغالات نفسها تجمع الطرفين، فمساعدة هذا أو شقاؤه تصنعها أفراح الآخر أو أحزانه. أين يا ترى يمكننا أن نجد مصالحة أكبر من هذه وأكثر حميمية؟ إلى من سيؤول المعمر دون الأهالي؟ كيف يمكن أن يفعل وفاء؟ يمكنه أن يفعل دون هذا الخزان الهائل من اليد العاملة؟

أحد معبري منطقة سطيف - وهي من أحصص مناطق البلاد - قال لأحد عمال الإدارة الهافين الذي أرسل للتحقيق حول أسباب الهجرة الكثيرة صوب سوريا: "إذا لم تجدوا حلا جادا لمسألة الأهالي وهجرتهم فما علينا سوى جمع أغصنتنا والرجوع من حيث أتينا". إنه اعتراف صريح وقوي يسكت كل مقول تخول له نفسه نكران فضل الأهالي في دفع عجلة التنمية الاقتصادية.

من جهة أخرى، من دفع هؤلاء إلى العمل، وغير ذهنيته في العمل. إنه هذا المعمر الذي من وراء البحار لا يحمل معه إلا بنيته

القوية في أغلب الأحيان، هذا المغامر الذي جاء وتمركز وسط أناس لا يعرف لغتهم ولا ذهنيته، ولا عاداتهم، والذي واجه ألف عسر وعسر، وحرّم نفسه من كثير من الأشياء كي يشكل له خلية حيوية، وبينما على هذه الأرض التي انتهى به الأمر إلى احتضانها كانت وطن ثان؟

من الذي علمنا طرق الزراعة الجديدة؟ من أحدث الارتفاع الذي نراه في أجور عمال الحقول إن لم يكن المعمر؟

من يجرؤ على نكران فضل هذه الشراكة؟

"لا تكون أمة جديدة بالأرض والطبيعة التي ورثتها إلا إذا عملت بجهودها وفنونها على جعلها أفضل مما كانت عليه". كما قال راسنكن.

لهذا نرى فرنسا جديدة بالتراب الجزائري بفضل أعمال أبنائها وإنجازاتهم، تأملوا هذه الأعمال وستجدون كل شيء يتحدث عن تحول مستمر، الريف الذي كان يوارا صار يزدان بالمحاصيل ان صبة، والجبال تركت جديها لصالح خضرة جديدة وجميلة، والمناطق الخالية، ثم الهاويات التي كانت مستعصية تماما على العابرين، تراها اليوم تربط بينها الجسور المتينة، وهذه المساحات لم تكن فيها سوى النباتات البرية القديمة، والتي لا تجد فيها سوى مزيج

مكتيب من الملقق والعتاب النبري، تحولت اليوم إلى قري جميلة يشرفها
اسم أحد عظماء فرنسا ويريناها شجر البرتقال واليوسفي بثماره المذهبة.
والصخور التي لم تكن تعرف شيئا سوى هجمات الأمواج
البحرية الغاضبة، أصبحت اليوم موانئ واسعة ومراسي غنية تحتضن
الجوار الطيب للخيرات والكتوز التي لا تفرق أهلي ملك لساكن
أصلي أم غمر.

في خطبة بلغة لا تسي قال السيد قوادري* : " هنالك مثال لا نمل
ضربه ولا تكرار ضربه، لأنه دليل على الصمود الفرنسي، أقصد
بوفاريك، التي تقع في أعين المواقع من " النتيجة "، في نقطة التقاطع
بين المياه الهائلة من الأطلس والمياه الصاعدة من ساحل الجزائر
بوفاريك، لم تكن في 1830 سوى مستنقع وسبخ، أنشئت فيها مدينة،
تحولت مع الوقت إلى مستنقع للموت.

في عام 1841، أخذت الحمى 106 معمرا من مجموع 450 معمرا
تمركزوا هنالك عام 1842، أخذت 42 من 300، وتجدد سكان
المنطقة عدة مرات، إلا أنه في عام 1856 بدأ معدل الإزدياد يفوق معدل
الوفيات، وبعد عدة سنوات أخرى، عام 1870 صارت بوفاريك تذكر
كأحد أنظف الأماكن في الجزائر، ... أما اليوم، فالمدينة وما حاورها

* السيد الخطيب في شبة قنيطية بمناسبة توزيع الجوائز سنة 1907

تكداد تكون مخفية تماما تحت أشجار الأوكاليتوس الضخمة،
وأوراق الدلب الظليلة، والسراخس السوداء، والجوز الباسق،
والصفصاف الكثيف الرشيقي.

لا شك أن أعمال الصرف الصحي والتطهير هذه قد شغلت اليد
العاملة من الأهالي شهورا وشهورا. ها هو ذا مثال الجهود المتضافرة
التي نتحدث عنها، أليس هذا الإنجاز مثالا جديرا بالتذكير؟ أليست
هذه الإنجازات هي التي ترسخ الصلات الأقوى والأكثر حميمية بين
الطرفين؟

إذا ما نظر إليها من هذه الزاوية، تصير أعمال التعمير في رأينا
أفضل أعمال المصالحة ويصير تعداد فضائلها غير ممكن لكثرتها،
إننا نجتهد كثيرا كي نقول ما عمه الجميع وما يدركه كل ذي
منطق سليم وعقل حفي. لقد جلبت - هنا - الثراء للبعض والظروف
الحسنة للجميع، وخاصة إذا نظرنا من الجانب الصحي.

وربما يكون أهم النتائج هو جعل الأهالي يفكرون في وضعيتهم
ويعيدون جمع حساباتهم ليخرجوا من حالة الشلل التام الملم بهم، إن
استعمال الآلات الزراعية غدا أكثر انتشارا، فهناك أكثر من 30000
محرث تجوب أراضي العرب والقبائل، وإذا كانت هذه الأخيرة قد
خلقت حاجات أكثر فإن المداخيل والأجور قد تزايدت تزايدا هاما، ثم

إن الفلاح، ويفضل جوار المعمر الفرنسي، قد أصبح يلبس لباساً أفضل مما هو تعود عليه من "قدوار" و"قاعة" وما شابه ذلك، والاستهلاك العام للموارد الغذائية التي ينتجها المعمر لا يفتأ يتزايد متنبهاً بتقنية أكثر صعبة، منذ ثلاثين سنة فقط لم تكن نجد القهوة والسكر والصابون إلا لدى ثلث من العائلات ميسورة الحال، أما اليوم فإتانا لم نجدنا تحت خيمة الرحالة وفي كوخ الفلاح.

تخول تكامل في أدوات الفلاحة، ازدياد ملموس لقطعان الغنم والمواشي، ارتفاع محصول في الدخل الفردي للفلاح، تطهير أراضي الزراعة وتحسين عطاياها، وبكلمة واحدة: توسيع دائرة الثروة المحلية.

من جهة أخرى نجد أن التعمير قد غير العقلية بأن فرض أسئلة على الأفالي تدعو إلى البحث في أشياء لم تكن مركزاً لأي تساؤل من قبل: إن شبكة القرى الأوروبية التي لا تفتأ تزداد عدداً، تزرع في أذهان الأفالي الاقتناع القوي بأن التعمير والتواجد الأوروبي في بلادهم قيم لا مفر منه، وشيء نهائي لا مرجع منه، إنه مشهد يدفعهم إلى الإيمان بقول تواجدنا على أرضهم كقدر محتوم، إنهم بذلك يلقنون بأنه لا مستقبل لهم إلا بين أخصان المجتمع الذي يروونه يتشكل

حواليهم، ويجعلهم يتحولون إلى أتباع طيعين متى تمكنا من إرضاء رغباتهم وتطلعاتهم^١.

لا شيء أصح من كلمات هذا الفرنسي الحق العادل، وربما وجب أن أضيف بأن شعور الأهالي هذا لا يفارجه أي أسف على هذا المال، بالعكس، إنه اقتناع يملؤه الشعور بالاحترام والإكبار وحتى الإعجاب.

هذا عن الآثار النفسية لعملية التعمير وآثارها الخلقية.

إلا أن هذا النجاح لا يمنع توجيه لوم، بل لوم حاد وخطير، وأهم ما تلام عليه الحركة هضم مصالح الملاك الصغار لفائدة ملاك كبار وأقوياء، وهي مضاربة فظيعة عمت مراراً على إفقار الأهالي وإسقاطهم في العوز، بل هي مضاريبات لا ينجو منها حتى المعمر الصغير، ويبدو أن الإدارة عاجزة تماماً عن حماية الساكن الأصلي من أطماع السماسرة والمضاربين المحيطين به والذين يتسلطون عليه وعلى ابن جلدته الأقوى من الأول وأكثر استعداداً للمواجهة والصراع، إنه قانون التنافس الحيوي، اللامبالاة الطبيعية لدى إخواننا، فقدان الأمل العابر الذي يصيب أحياناً المعمر المتواضع، كلاهما يصدم بضراوة جشع المضارب وحب الربح.

^١ - Le temps: «Comment Organiser l'Afrique Du Nord», P.26.

و بعد ان شاع قطعة الأرض، يجد المعمر نفسه مهاجرا إلى المدينة
ليعمل بناء أكثر تواضعا، أما الساكن الأصلي الذي لم يكن له
شئ من حياة عمل آخر سوى الفلاحة فيتحول إلى "شماس" ترصده
وأهليه الفتر والحزمان ... ولا يجدان عموما سوى هذه "الكبيرة
الطاغية" المسماة الإدارة للاستعداد والإفراغ جام غضبيهما، في حين لا
تملك هذه السكنية أي سلاح إزاء الجشع والطمع والمضاربة عديمة
الشفقة أما الفصل الأخير فيتمثل في هجرة الأهلي تحت راية الوعود
الوردية بحياة أفضل من المشرق، يجرد إيمانه تارة وأحلامه تارة أخرى.

فيما وطأت قدماه الأرض المباركة اكتشف الخديعة الأكبرى
التي وقع فيها، وأنشأ بسرعة يكتب بلفظه الجميلة رسالة إلى السيد
الفاضل النبل الكريم، فتصل فرنسا من أجل طلب إعادة ترحيله إلى
الجزائر.

ما الذي ينبغي فعله لتجنب الأهلي كل هذا الهوان ؟ ما الحل
المقترح لنا أكثر دراية - في الحقيقة - من الإدارة العامة بهذا الأمر ؟
ها نحن أولاء نختم هذا الفصل، وبقي البت في أمر مدى استفادة
الأهالي من هذه الامتيازات، وهل فعلا فعل كل أمر من شأنه تقوية
الفوارق بين الأهالي والمعمرين، أم أن هناك اعتبارات تزيد هوة التفرقة
كبعضها سواء على المستوى المادي أم المعنوي ؟

فلنتذكر قصة آلاف الرجل أولئك الذين تم طردهم صوب
الجنوب، مشكل عويص لا يزال تعقيده يورق الإدارة الجزائرية المنوطة
بها مهمة المحافظة على التوازن بين العناصر المشكلة لمختلف أرجاء
المعمرة، لا تملك إبداء الرأي في هذا الأمر، وربما تتكون بعض
التجارب محتاجة إلى وقت مديد كي نحيط بها ونبدي فيها الرأي
الصواب الذي يتكون السنون قد شحذته.

أما هذا الفصل فلا يطمح إلى أكثر من تبيان بعض الوجوه التي
يمكنها جعل المعمرة قسما للمصالحة وللحرية.

الفصل الثالث

"المدرسة"

لكي نجري إصلاحات على المستوى المادي لحياة الأهالي، دون المساس بالمصالحة بين سكان الجزائر اقتصاديا خاصة، اتخذت الإدارة الفرنسية تدابير عدة وقفنا منها عند اثنين ظهرا لنا هامين - وملموسي النتائج: الأمن، والتعمير. وكلاهما يخلق العلاقات بين الأهالي والأوربيين ويسهل أمرها ويقويها ويطورها.

إلا أن الاكتفاء بهذين الأمرين فقط من أجل تحرير هذا الشعب وتنميته والرقي بمستواه، يعد نقصا في كرم أمة متحضرة كفرنسا، كان لا بد، من أجل التقريب بين الناس ولم شملهم والتوحيد بين تطلعاتهم، وترقية معاملاتهم، كان لا بد من غزو العقول غزوا أخلاقيا معنويا.

هذه المهمة شجاعة وعسيرة، فتربية شعب كشعبنا الذي غاص في مجاهيل الجهالة طيلة قرون ليس أمرا يسيرا، ومهما يكن الأمر فالإدارة الفرنسية قد انطلقت في هذه المهمة التي فرضت نفسها - في الواقع - لسببين اثنين.

من جهة كانت الدولة بحاجة إلى أعداد كبيرة من الموظفين من
الأهالي من أجل التمكن من تسيير أمور هذه الكتل الصغيرة من
الجماعات التي لا تفي أوروبا جيدا عقليتها، ومن الجهة الأخرى.
ففي فرنسا الأولية مهمة حضارية، ولا يوجد تمدن دون تربية
وتكوين، أي دون تعليم، تعليم الغالب للمطلوب.

ما هو ملخص هذا التعليم ؟ كيف تعامل معه الأهالي هنا ؟ وماذا
كانت نتائجه ؟

هذا ما نريد بحثه لن نجيب السؤال الأول، ولن نبحث في أمر
تنظيم هذا التعليم لأن الجميع يعرف أمره، ويراه ويرأوه فيتعرف على
برامجه في الثانويات، في الكليات، في المدارس، في الابتدائيات
وحتى في المدارس/الأكواخ التي يعتني بها في كثير من الأحيان
الأهالي أنفسهم، بل ويتفقدون عليها من لدنهم، بسبب ملاحظتهم عجز
الإدارة الفرنسية عن اجتواء كل طالبي العلم، وعن التكفل المادي
بهم.

هناك في الحقيقة هو البحث عن التطور الذي سجلته مهمة
التعليم طيلة الثمانين سنة التي رهرف فيها العلم ثلاثي الألوان على
الشراب الجزائري، لذلك سنقول كل الحقيقة حول السؤالين الثاني
والثالث المطروحين أعلاه.

إن شعبنا قد بلغ مثلما تكرر على مسامعنا الجملة التي
صارت شهيرة - أقصى درجات التقهر، وأدنى مواقع التخلف - لم
يكن يستطيع، ولم يستطع أن يكون عند المستوى المنشود من قبل
الغزاة الذين يعلنون صوتهم السخي بضرورة تكوين الشعب المغزو
وتعليمه. هيهات هيهات! ما أبعد ذلك الأمر عن الواقع! إن عقلية
مسلمي الجزائر ظلت طويلا معارضة شرسة لفكرة دراسة اللغة
الفرنسية، وحتى إذا كان مزور الوقت، وتطور العلاقات بين الأهالي
والأوربيين، ورقة الصلات بينهم قد عملت كلها على خلق مدافعين
ومناصرين، فإن أعداء كثيرين لا يزالون على الضفة المقابلة.

هل يمكن القول إن أغلبية الأهالي رافضة للمدرسة ؟ لا نعتقد
أن مرد المسألة إلى الشعور، إن الإنسان في مثل هذه المسائل تابع
لحاجته، والحاصل أن الجزائري لا يجد الحاجة إلى التعليم، لذلك
فدفعه أو إغراؤه بالتعليم يجب أن يتم من قبل السلطات بواسطة خلق
الحاجة إلى التعليم.

ثم إن الملاحظ هو أن تواجد المدرس الفرنسية لم يعد يقابل بتلك
الحفوة القديمة. القاضي الناطق بحكمه وسط الجموع إثر المرافعة،
مساعدة الطبيب المداوي في عيادته، المدرس الذي يعلم أبناء "الدوار"،
الخوجة الذي يترجم الوثائق في مكتب الحاكم، الوكيل المدافع في
المحكمة العادلة المسالمة، كل هؤلاء أصبحوا يبدون للفلاح الأمي

اناسا انفسبوا معارف خولت لهم شغل هذه المناصب التوعية ذات
السلطة الخفية.

اعتقد أن هذا تحقيق كبير وانجاز ذو بال.

هذه الأمثلة والنماذج تغزو عقلية الفلاح وتغيرها شيئا فشيئا.
إنها أمثلة حية وهي أقوى من كل خطاب نظري يمكننا التوسع فيه.
وحتى إن كان يواصل عدم إرسال أولاده إلى المدرسة، فإن هذا لا
ينفي شعوره بأهمية هذه الأخيرة. وينبغي أن نقر بعد كل هذا بأن
الساكن الأصلي لا يشعر بأية فائدة للمدرسة فيما وراء المصلحة،
والفائدة للمدرسة المباشرة، إنه لا يعي شيئا غير هذا، والتعليم الذي لا
يعود على المتعلم بالفائدة بعد مجرد حمل يثقل صاحبه ويكفى، أو
حلية للتزين لا فائدة منها، أما الميرسف حقا فهو أن نجد أبناء الطبقات
البراقية أيضا عديمي الإيمان بالتعليم لذات التعلم، إنهم يضعون
النسكون في المرتبة الثانية بعد المال، وهنا نكون قبالة مشكلة أهلية
100% الوظيفية.

فالفلاح الذي يملك مائة هكتار ولا يملك سوى ابن واحد
فقط، لا يمكنه بأية حال من الأحوال أن يحوله إلى فلاح، سيعمل
كل ما يوسع له دفعه كي يصبح "موظفا"، حارسا بلديا مثلا، وذلك
عوض أن يجعله مساعدا له، في الفلاحة، مساعدا أكثر تكويننا

وأكثر نجاعة طبعا من والده. ذلك هو الواقع الذي نعرفه جيدا
للأسف الشديد.

لقد صادفنا فلاحا قباثليا، نجح في فلاحته، وعندما بلغ درجة
معينة من السبيل والراحة المادية، وجدناه شديدا التحسر على أن أحد
أبنائه مجرد محام لدى محكمة جزائرية، كان يتعناه "عادل" أو نائبا
للقاضي، أو حتى "قايدا" ... إلخ، مثل أخيه الأكبر الذي ينعم بجزء
هام من السلطة الإدارية والقضائية.

أما "فوقاطو" (محامي) وطبيب، فليست مما يتلج صدره، فقد
كان يواجه كل محاولاتنا للشرح والاقتناع بهزة عنيدة ولا مهالبة
بكتفيه ... أم الابن فكان يقوم بدوره مسجلا نجاحا أكبر من نجاح
السيد المذكور في ميدان غفلة.

الانتماء إلى الإدارة، امتلاك السلطة، ولو جزءا تافها من
السلطة، ثم التسلط على أبناء ديانتهم، إنه ذلك الميل الإسلامي الذي لا
شك فيه، وهو نفسه الميل الذي يدفع إخوتنا الأهالي صوب المدرسة
الفرنسية.

وحتى إن كان سببا حقيرا، فإنه أهم سبب يدفعنا صوب
التكوين والتعلم، أما ما يجب أن نتنبه له فهو ألا نترك الأهالي المتخرج
دون عمل، لأن مفعول ذلك على الجموع سيكون كارثة، ومع ذلك

فلا بد من الإقرار بأن الإدارة لا تستطيع أن تجعل كل أبناء مدرسته المتخرجين إداريين. فلا بد لهؤلاء الساترين على درج التحضر والتقدم من التوجه على عدم انتظار الحلول من قبل الإدارة. إنه أمر عسير، ولن يثنى دون موجبات غضب واستياء، إلا أنه أت لا ريب

هذا العسر بدأت تظهر في "المدارس"، فظاهرة العطالة عن العمل منتشرة بين المتخرجين، فتمتد سنوات وجد أغلب هؤلاء ملجأ جديدا في المغرب الأقصى. ولكن إلى ماذا سيؤول الأمر بعد سنوات قليلة عندما يصبح المغرب معتمدا على اليد العاملة المحلية؟ لا بد من التفكير في الأمور بعناية وعلى مدى بعيدا هذا هو التحدي المائل أمام الإدارة حتى وإن كان الواقع ينفي أن يكون الأهالي يصدد التوجه صوب المدرسة بأعداد كبيرة، ولا ينفي - بالموازاة - أن الأهالي لم يعودوا اليوم تلك الكتلة الكبيرة العاطلة المشلولة السلبية التي كانت معروفة منذ ثمانين سنة، هنالك مواقف مع المعصرة تعرف النشاط الثقافي في العمل. في حين يملأ الكسل والتشاغل مواقع أخرى - ولا بد - من أجل الإنصاف - أن نتساءل ماذا يمثل في حياة أمة قرن واحد من التربية والتوعية؟ علينا مواصلة المعركة التربوية في المدرسة. من أجل نقل عدوى الإخوة الآخرين الذين قطعوا أشواطا هامة في هذه المسيرة، وسنرى القبس الفرنسي يغزو بيوت الأهالي وعقولهم.

وربما وجب تشديد المهجة على ضرورة احتواء الحياء الديني في البرامج من أجل تجنب كل حساسية في المدرسة، ولن يطول الزمن الذي تبطل فيه تماما المزاغيم القائلة أن مدرجات ومقاعد المدارس الفرنسية فارغة تماما، والتي يزوج لها الفاسدة الذين تملوهم الأحكام المسبقة والنوايا المريية المبيتة.

كتب السيد ريمون إينار Raymond Aynard صاحب الرأي الحصيف الجدير بالاحترام: "غالبا ما يكرر المتقولون مقولة أن مدارسنا في الجزائر فارغة ماعدا في أيام التفتيش، والحقيقة التي تأتي من الشهادات غير المتطرفة - واللامبالية - لبعض الإداريين الذين لا ناقة لهم في الأمر ولا جمل، والتي مفادها كذب هذه المقولة، بل الحقيقة تقول: إن مدارسنا تميل أن تكون ملأة!"¹

و ربما بلغنا النقطة التي نوجه فيها اللوم صوب الإدارات المحلية في بعض المناطق أين لا يبدو على المسؤولين أي استعداد لبذل المساعي المالية لإنشاء مدارس لصالح الأهالي.

في تقريره حول تعليم الأهالي، كتب السيد رئيس أكاديمية الجزائر "لا يبدو اهتمام بعض السلطات البلدية بتقديم مخططات تنفيذية مرتبطة بالتعليم، إن التعاون بين السلطات على مستوى

الحكومة وعلى مستوى البلديات هو الميدان الوحيد الذي تبدو فيه
نجاحة المخطط التعليمي أو فشله.

ماذا نقول يا ترى عن بلدية سكيكدة Philippeville، إحدى أول
وأهم المدن التي دخلتها فرنسا بعد غزو الجزائر، والتي عجزت عن
بناء أية مدرسة للأهالي منذ فتحها حتى عامنا هذا 1913، بالحجة
الواهية التي هي قلة عدد الأهالي فيها¹، ليست هذه هي التعليقات
التي تستطيع تورية التوايا السيئة المبيتة لدى المسؤولين، إن نموذج
سكيكدة ضارخ فاضح، إلا أن الحقيقة المرة هي أنها ليست النموذج
الوحيد. بعض البلديات تعتقد جازمة في النقص الأكيد لجودة ونجاحة
العمال الأهالي ... في حين يحكم البعض على الأهالي بأن فترة
تكوينهم لم تات بعد، أما الفئة الثالثة فلا ترى في الأهالي سوى
أعداء لها.

فقيم السعي إذن من أجل تحقيق شيء يعتقد البعض لم يحن
وقته بعد ويعتقد آخرون دون أهنية، وتراه فئة ثالثة أمرا خطيرا.

وما أقوله لا ينفي وجود بلديات عقليتها جمهورية حقا، وهي
بذلك لا تدخر جهدا كي تحقق أفضل النتائج في الميدان الذي نحن
نصده وسأل ذلك قسنطينة.

¹ - عدد يقارب 8000 ساكن

لهذا فإن القرار المتخذ من قبل رئيس الأكاديمية بالاشتراك مع
الحاكم والذي مفاده ترع صلاحيات بناء المدارس من أيدي البلديات،
قرار حكيم لا ريب فيه، ولهذا فإننا لن نضم صوتنا إلى صوت
المتهمين الطاعنين في توايا الحاكم مهما كان نوعها. خاصة متى ما
أحطنا بجوانب عمل الحاكم المتشعبة، والتي قد نتفهم في ظلها حتى
بعض حالات الفشل.

ها نحن أولاء نبلغ النقطة الثالثة التي ذكرناها أعلاه.

لا نعدد منذ 1877 حتى 1911 إلا 450 متقفا من أصل خمسة
ملايين أهليا وهو العدد الصغير الذي يضم المتعلمين المسلمين أيضا،
أي أنه يضم أناسا وحيهم لا يتجاوز وعي أحد المستمعين إلى توما
الإكوني¹ اعتراف عسير، لا يشرف لا الحاكم ولا المحكوم.

لا نستطيع أن نجلب الخير للناس ضد إرادتهم، هذا ما
ستقولونه، نعم، ولكن مهما كانت البرودة التي يتعامل بها الأهالي
مع المدرسة والتعليم وهو الأمر الذي بينا أسبابه، خاصة فيما يتعلق
بالبرابرة - فإننا نعتقد أن عمل الدولة المعلمة كان يمكنه أن يكلل
بنجاح أكبر مما رأيناه.

¹ - ALAUDE : la question indigène dans l'Afrique de Nord - son équivoque - une
maladie de la pensée politique française.

والواقع أن الفصل يعود - فيما وراء النوايا السيئة للمسؤولين
البلديين، وعدم اهتمام الأهالي وتفاعسهم - إلى وجود سياستين
متناقضتين متجاوزتين.

الجميع يعترف بأن الأموال التي تختزنها الخزينة الجزائرية
ليست كثيرة وبالموازاة نجد الفكر الجمهوري مؤمنا بضرورة تعميم
التعليم من أجل تحقيق الهدف الحضاري للحملة الأوروبية، إلا أن
الحديث عن هذا الأمر لا يصل إلى درجة دفع المسؤولين؛ حكاما
ومفتحين، إلى بذل الأموال اللازمة لتحقيق هذا الهدف. وهو الأمر
الذي يزيد حدة كون فئة لا بأس بها مؤمنة بأن التعليم والتكوين
ينبغي أن يمر بمراحل عديدة تبدأ بتحديد دائرة التعليم في طبقة
محدودة لتشكيل فئة متقنة عالية التكوين وجيدة التفكير. في حين
الفئة المقابلة ترى الخير لكل الخير في رؤية أعداد كبيرة جدا من
المتدربين تجاه أسوار المدرسة الفرنسية كل عام، الأمر الذي من
شأنه التأثير في عقلانيات وآراء وتوجيهات الأهالي في الصميم. هل هي
سياسة رشيدة أم أنه تسرع يطبعه الحماس؟ الأكيد أن هنالك
تفضيلا لا ريب فيه للكم على النوع.

هذان هما الاتجاهان اللذان ظلت الإدارة الجزائرية تتراوح بينهما
يخطى متعثرة طيلة سنوات وسنوات، عاجزة عن الفصل النهائي في
اختيارها.

و نحن نميل بدورنا صوب الرأي الابتكاري لإيماننا العميق بأن
عملية حشو أدمغة صبيان الأهالي بمعلومات قاعدية يلقتهم أيها
متمربون من فئة 600 فرنك سنويا ممن لا مؤهل لهم سوى عدم
الرسوب النهائي في شهادة التعليم الابتدائي (في مدارس الأهالي
طبعاً)، عملية تبقي دون دخول الحقائق العلمية إلى العقل الأهلي،
وكل خطاب يقول غير هذا لا يعد ويكُون ثرهات مزايدات لا ينخدع
لا العقل الحصيف المنطقي هل يعني هذا أن "المدارس" لم تقم بأي
دور على مستوى التعليم الابتدائي للمسلمين؟ لا. إلا أن رغبتنا في
الإنصاف تجعلنا نقف متخوفين عند بعض النقاط. إن الحق واحد
فلماذا إذن نجد برنامجين للتعليم، واحد للأوروبيين والآخر للأهالي؟
لماذا هذه البرامج الخاصة بالأهالي، والتي هي قريبة من نمط
عيشهم، من ريفيتهم المحتومة والتي تعلمهم تصويب النظر صوب
الحياة لا صوب العلم بحد ذاته.

هل معنى هذا أن العقل المسلم أدنى من غيره؟ ما الفرق بين
الفتى "ألونسو تريفالو" وتريه "علي بن أحمد" إذا كانا على الدرجة
نفسها من التركيز وهما يتابعان دروس المعلم نفسه؟ هل "الشاشية"
رمز للتخلف والدونية؟ لقد برهن نضر غير قليل من زملائنا القدامى
على تهافت هذا الاعتقاد. بل إنه تناهى إلى علمنا أن آخر الإحصائيات
تقول بأن أفضل معدلات الرياضيات والفرنسية كانت من نصيب

الأهالي الحقيقة هي أن عقل الأهالي لا يقل عن أي عقل آخر في التفكير وفي التمثل إذا ما أعطى معلماً جيداً، لهذا نزعنا أنه حان الآن لتصحيح أخطاء هذا الوضع، ولتوقيف إنشاء المدارس/الأكواخ، أو ما يسمى رسمياً "المدارس الملحقة"، إنها لا تقابل إلا بالاستهزاء والتحقير، ثم إن نتائجها حقيرة جداً، إلا إذا كانت لغة النتائج الملموسة ستترك المكان للغة الإحصائيات، بالموازاة، مؤسسات النمط القديم أكثر احتراماً وجدية، والإدارة العامة ستجني خبرات جفة لو أنها عكفت على نشرها والإكثار منها، إن حاجيات الأهالي هي التي تملي ذلك، أما الذين يقولون إنها مدارس خالية من الأهمية فنقول لهم أن رأي الأهالي يفند مزارعهم، ثم إن هذه الثقة التي يضعها هؤلاء في هذه الأخيرة تجعلها ناجعة ... بل إنهم مصرزون على نمطها التعليمي، ولئن يقول إن نتائجها بطيئة جداً، سنقول: إن الأهالي قد صبروا طيلة قرون في ظل حكم فوضوي اعتباطي ويمكنهم اليوم، وقد حصلوا الأمن وبسر الحال أن ينتظروا قروناً كاملاً بل قروناً إن تطلب الأمر، حتى تؤتي هذه المؤسسات أكلها.

بالنظر إلى كل هذا سيكون الإجحاف أن نقول: إن ما أنجز من أعمال التربية والتكوين لا يمثل شيئاً بالنسبة لواقع الأهالي، وحتى إذا كانت ضراوة الحوار قد دفعت بعض الأصوات التي

يحركها الحماس والتعيز أكثر مما يحركها التأمل والملاحظة الجيدة، إلى أن تبقى كل فائدة لبرنامج التعليم في الجزائر، إذا كانت هذه حال البعض فلن نستطيع بأي حال من الأحوال أن نعترف بالنتائج المحققة التي يشير إليها الواقع.

المشكلة هي أن بلد المتناقضات هذا، لا يسمح بظهور حلول اعتباطية، بل يجب عليها بالعكس أن تكون نتيجة تجربة طويلة ومعرفة متملية بالأشياء هنا، والمشكلة هي أن المادة جاحدة دائماً، والنجاح ليس حاضراً باستمرار، صحيح أن التعلم العائلي للأهالي قد غدا الشغل الشاغل للسلطات العمومية. صحيح أن "المدارس" إذا ما نظرنا صنوبها من بعيد تبدو مهيبية، جميلة الأبنية، رحية الأفضية غالية الأبواب، جليلة السقوف ... إلا أنها في أعماق أعماقها لا تختلف عن أديرة العصر الوسيط، إنها لكثيرة جداً الإصلاحات التي يجب أن تلحق بها كي تصبح مختلفة عن "الزوايا" الحالية التي يبدو أن يد المستعمر لم ولن تقالها بتجديد، إلا أنه لا يجب أن ننكر أن النتائج المحصلة أفضل بكثير مما كانت عليه منذ عشرين سنة فقط، فرجال القانون المسلمون المتخرجون من هذه المؤسسات قد استحدثوا

كثيراً من طرائف العمل المعاصر التي لم يعرفها القضاء والقدماء، إن نزاهتهم لا شك فيها وعملة ينضح رغبة في الارتفاع بالمستوى الخلقي

المحيط بهم وفي الفعل على تطهير مناصبهم من كل ما كان يشوبه قديما.

المدارس الابتدائية، وهي نموذج جيد للجدية في العمل تعطي نتائج ممتازة لن تفتأ تزداد امتيازاً لو أن الإدارة كانت أكثر صرامة في اتخاذ القرارات الحكيمة وفي العمل بالمبدأ الجيد المتوارث: قليل من العمل وكثير من النجاعة.

بالنسبة لنا، نحن المعجبين بالمؤسسات الفرنسية، حتى وإن حكم علينا بأننا متفائلون حقاً، لا يمكننا فصل شهادتنا المتواضعة عن هذه الكلمات التي قاله أحد الأفاضل "إن تعليم المسلمين وإن لم يكن له من المفعول سوى ترك صدى على هضاب العرب للكلمة الطيبة وأريجاً لبعض الفضائل الفرنسية يجعل ذكرى قلب أبوي حنون تعرش في قلوب الأجيال الصاعدة؛ ذكرى كيان متعال عن السفاسف، وهذا الأمر يجعل كل حرج يزول وكل عسر ييسر.

الفصل الرابع

"البلديات المختلطة"

إن هذا البرنامج السياسي والاقتصادي الواسع الذي يشم
قطاعات الأمن والتعليم والتعمير سيقضي إلى قليل من الأشياء إذا
لم يجد تطبيقاته في دستور نظام خاص، هذا النظام هو نظام
البلديات المختلطة، إذا انطلقنا من هذه الإدارة المحلية سيثبت المثال
الأعلى الفرنسي الذي يحمل السلم والازدهار والتكوين لجميع
الناس وجوده بكل قوة ونجاعة وتتوق داخل المجتمع المسلم.

عرف سكان البلديات المنتقدون، المشنع بهم من طرف
البعض والمعترف بهم المتساند معهم من طرف البعض الآخر مراحل
هجوم وتجميد بالتناوب كان خلالها رجال السياسة والخطباء
والإشهاريون من كل نوع، ومن كل جهة ومن كل تنظيم يقدمون
المدح والإطراء لهؤلاء أو الشتائم واللعن الأولئك.

يبدو أن الوقت قد حان بالنسبة لنا كي نقول الحقيقة عن
هذا النظام، نحن اللذين عشنا تحت سيطرة الإداري "والقائد" حيناً
وتحت ولا يتهم الرحيمة الرؤوف حيناً آخر، وحتى إن لم نكن
سنفضل فصلاً نهائياً في أمر هذه القضية فإننا سنأتي هنا بشهادة

معيشة وصريحة لأهلي شاب يتابع بإعجاب الصراع الجزائري ما دام
معزوماً وبعيداً عن التعصب. شاب لا أمل له سوى رؤية الالتحام
على الأرض الشمال إفريقية للأفكار والأمال والمشاعر - وفي وقت
سياتي - اندماء التي عمل على زرع بذورها أناس مثل آل بوجوا
« Bugeau » وآل تيرمان « Tirmari » وآل جونار « Jonnart » وآل
لوتو « Lutaud ».

ولكن من هم رجال هذه الإدارة يا ترى؟ إنهم عديدون في
الحقيقة، ونحن لا نذكر منهم سوى اثنين لأنهما بشهادة كل
الناس مفتاح السياسة الفرنسية وهما: الحاكم والقايد بهذا
الترتيب سنبداً من الأصغر إلى الأكبر أي من رئيس القبيلة إلى
رئيس البلدية.

يعينه ويعزله الحاكم العام، هذه هي حال المأمور الأهلي
الذي زانته الإدارة العليا ببرئوس وقماش قرمزي، كرمز لتمييزه
وكإشارة إلى سلطته. أضف هذه الصورة كانت أكثر صحة
وأكثر قوة منذ خمسين سنة. إذ كان هذا المأمور أكثر أهمية
وأوسع مالا بسبب طبيعة الأجور، وإن كانت الحقيقة أنه كان أقل
أهمية مما هو عليه اليوم. إذ لم يكن مطلوباً منه آنذاك ما هو
مطالب به على أيامنا.

مأمور الأمس، محاطاً بكل تلك الأبهة، وسائراً وسط تلك
الهيئة وذلك الجلال، لم يكن مطلوباً منه شيء سوى الاعتراف
بالعلم الفرنسي، والمحافظة على "سلم سلمي" بين القبائل، ولا شيء
يهم إذا كان جزء من الضرائب يأخذ طريقه نهاية كل سنة صوب
الخزائن الوطنية لتسديد شيء من النفقات المعمرة التي يضطلع بها
الحكم المركزي، أما باقي المال فهو في خدمة نزوات معدة كل
حاكم محلي مترع على عرشه تحت خيمة ما، أما حالياً، فالقايد
أو الشيخ أو النائب الأهلي - لكي تسميه بتسميته الإدارية
الرسمية - منوط به في دائرته التي هي أضيق بكثير من دائرة
صنوه القديم، مهام أكثر، وأدق مما كان للآخر قديماً. إنه
مسؤول بالدرجة الأولى عن أمن المعمرين¹، الذين هم أناس يصعب
جدا إرضائهم، وكذلك هو الأمر مع الأهالي. إنه المسؤول المادي
والمعنوي على تحصيل وتسجير الضرائب التي لا يستفيد شخصياً إلا
من جزء صغير جداً منها. وهو من يفصل دائماً في المنازعات الناشئة
بين أفراد دائرته، عاملاً كل ما يوسع له لتجنب وصول القضايا إلى
المحكمة، لأن ذلك مكلف جداً في ظل شح الخزائن المحلية.
بكثير من المبادرة عليه إعانة البعض وتشجيعهم دون المساس
بمصالح البعض الآخر، هذا هو دور هذا المسؤول الأهلي كما

¹ - قدم أحدهم شكوى مفادها أن نحل الضيقة المجاورة كان يأتي لأكل أعنابه.

نراء. وهو دور حتى أراد صاحبه القيام به على أكمل وجه.
ينطلب الكثير من البراعة والخصاصة. هذه هي العوالم التي يدور
فيها عمل هؤلاء المأمورين الذين يعلق عليهم الحكم الفرنسي آمالا
عريضة فإذا نساءلنا، هل هذه المهام مؤداة كما يجب؟ وقعنا في
الحرج والأرباك.

بال تأكيد سيظلم الآخرين من ينكر نجاعة هؤلاء الأفراد،
ومن ينفي عنهم كل فضل إلا أنه من مجانية الصواب أيضا أن نقول
أنهم مأمورون نموذجيون. إضافة إلى معارفهم المحدودة تأتي منقصة
أخرى هي تلك المنوطة بعرفنا فلكل عرف منقصة، يبدو غريبا
وعجيبا الإقرار بأن ثمانية أعتار هؤلاء الأعوان "القياد" أميون. إلا
أنه الواقع المعيش والنحوس والترايد بإصرار من الشرق إلى
الغرب إنهم لا يجهلون فقط القانون الإداري الفرنسي بل إنهم
يجهلون حتى لغتهم ثم إن أعداد كبيرة منهم لازالوا يضعون علامة
صغيرة (+) مكان الإمضاء رغم كون النياشين تملأ صدورهم
متموقعة فوق شريط بنفسجي جميل ليس هذا انتقادا للإدارة التي
توزعها، ولا لوما لها، بل إننا بعيدون عن هذا الأمر تماما لعلمنا
اليقيني بأن هذه الأمور قد حدثت من أجل ضمان وفاء الأتباع
واستتباب أمور الرعية.

للأسف الشديد هؤلاء المأمورون الذين تزينهم النياشين ليسوا
هم أعسر من يسلط الضغط على الأتباع، إذ توجد جيوش من
الشيوخ اللذين يتسربلون بالبرائيس يتسمون ساعة "قايد" وساعة
"آغا" وساعة شيئا آخر... المشكلة أن كثيرا من الأعوان الأهالي
يملكون تصورا غريبا لدورهم كإداريين، وإذا كانت تلة منهم لا
تقوم بالتجاوزات المشينة فإن أغلبهم يقبل بطيب خاطر أن يغمض
عينيه حينما تقدم له هدايا وأعطيات من قبل أصحاب المصالح
وحتى أصحاب الشكاوى ممن يأتون بقوارير العسل أو الزبدة
وغيرها متسللين بخطاهم الآثمة لوضع هذه الهدايا في المخزن.
والمشكلة أن الحكم يتم بأي شكل كان، بمعزل عن السير
التقليدي للمخزن الذي يتقبل الأعطيات وبمعزل عن الرعية التي
تقدم الهدايا... فهكذا هي الأمور منذ كانت هذه البلاد.

لذلك فإن الخروف الذي يهدى إلى القايد ليلة العيد دون
مناسبة و"الدورو" الذي يوضع في جيب ابنه أو أي جيب حواليه
بمعزل عن عيون الناظرين والذي يسمى "البركة"... كل هذا لا
يصدد أحدا ولا يثير استغرابا- إنه النظام العادي للأشياء منذ
1870 وقبلها أيضا للأسف الشديد.

ذلك فإننا لن نطيل الوقوف بأبصارنا عند هذه الحقائق التي أصبحت عارية مألوفة لدى الجميع، ما نود الإشارة إليه هو أن هناك من يسلط هذه الأشياء من جيوب رعاياه سلبا للاغتناء السريع، هؤلاء لابد من اتخاذ تدابير رادعة في حقهم من قبل الإدارة وكذلك في حق معينهم الذين يفتنون إلى جانبهم من خلال عمليات أصبحت معروفة مثل "الدبارة"¹ فيما يتعلق بالأراضي الجماعية والإشارة² فيما يتعلق باستعادة الأغنام المسروقة و"الكبار"³ بالنسبة للأغنام المخصصة للأعمال الجماعية ... وكل هذه مداخل غير قانونية يتفق على الخوض فيها الجميع عاليهم وسافلهم، قاصيهم ودانيهم.

توجد فئة أخرى أقل جشعا، إنهم لا يرفضون هدايا الرعايا التي تبدو لأول وهلة عربون صداقة قبل أن تتحول فيما بعد على أرضية رشوة. إنهم لا يفعلون شيئا لإيقاف هذا الأمر وإن كانوا لا يسلطون ضغطا على إخوانهم من أجل حدوثة. أخيرا توجد فئة ثالثة

¹ - فعل يقوم من خلاله أصحاب قبيلة أو دوار ما بمنح قطعة أرض هي للعرش بدون مقابل.

² - مصطوفة يقوم من خلالها لصوص الأهالي بإرجاع مسروقاتهم لقاء مقابل ما من خلال شخص ما. ويحظر أن يفتنوا من الفلاحين معصيين وأهالي يضلون التوجه إلى "البشارة" أحسن من التوجه إلى السلطات الأمنية التي لا يستطيع في أغلبية الأحيان أن تفعل شيئا ضد المصوص.

³ - البشارة هي أصعب البشارات والأخبار السارة.

⁴ - الكبير هو رئيس أي جماعة تابعة لإدارة ما يسمى أبعدا "المروور".

من القياد يعوضون تكاليف أعمالهم وخدماتهم بطلب خدمات بالمقابل متأكدين من قضاء رعاياهم لها.

شيء غريب آخر هو أننا نجد أبناء الأكابر مزودين بالنزاهة المهنية وبأخلاقيات عالية في حين الفلاح الذي هو عموما مطالب بأن يكون رئيسا في دواره والذين نجده في كل مكان فهو حينما موظف جشع وحينما قايد مرتش وحينما آخر مسؤول قوي، الأمر الذي يقودنا إلى الاستنتاج بأن درجة النزاهة لا علاقة لها بدرجة الغنى وسعة الثروة وإنما تقف متفهمين أمام المأمور الأهلي الذي تجعله الحاجة يلجأ إلى أحد رعاياه من أجل خدمة ما. ذلك أن الأخلاق الإسلامية حاربت منذ القدم الصلات التراتبية بين الحكام والمحكومين، فتجن نجد على مر التاريخ ملوك المسلمين يضاحكون ويداعبون رعاياهم ممن يصادفونهم في الطريق مهما كانت بساطتهم وفقرهم. بل إن رسول الإسلام (ص) نفسه -ممهدا للقديس لويس المسيحي بشكل ما- لا يتردد في ساعات الحر في أن يجلس تحت شجرة المفضلة¹ في المدينة مستمعاً إلى حميميات من أتباعه وشكاوي البعض الآخر من رعيته.

¹ - جاء في الأثر أن هذه الشجرة أصبحت تملك قدسية معينة، وأن كثيرا من الصعابة البسطاء قد أصبحوا يتعاملون معها تعاملًا طقوسياً بعد وفاة الرسول (ص) الشيء الذي رفع عمر من الخطاب إلى قطع الشجرة وحرقها لكي لا تكون العبارة والتقديس إلا الله.

ونلاحظ في مرحلة أقرب منا الأمراء المنتخبين من قبل السلطة الترشدية ينظمون جلسات بعد تعيينهم لاستقبال هدايا الأتباع والرعايا والقبائل لذلك فإنه سيكون من سوء التدبير السياسي أن نطلب من القياد أن يتحلوا بالنزاهة المهنية والوعي المؤسساتي المطلوب من الموظف الفرنسي والذي لا يصبح حاضرا باستمرار لدى هذا الأخير حينما يطيل التعامل مع الأهالي الذين يتعاملون بهذه الطرق تقائيا.

إن أخلاقياتنا التاريخية قد أقرت ممارسات قديمة قوية لا تستطيع الإدارة الجديدة زجرجتها لذلك يفضل أن يعمل مأمورون من الأهالي على الحد من جشعهم وتقليص ما يأخذونه من العطايا وتجنب التهديد والممارسات الخفيفة التي تهدف إلى تأليب هئات ضد أخرى من أجل تحكم في الرقاب أهل وأنجع.

أما معارضة الهدية التي هي ليست ممارسة يختص بها القاييد فحسب، بل يقات منها الفقيه الإمام والمقدم، ويرونها دليلا على سعة سلطتهم ودوام وفاء أتباعهم ... بل إنه من المؤسف أن نجد هذه الممارسة تلبس أيضا "المدرس" الذي يعدها تعبيراً عن عرفان طلبته، ليس كثيراً منظر ذلك المدير الذي وجد نفسه في إحدى المدارس الإسلامية مجبراً على التدخل شخصياً وبنشاط جم لأجل إيقاف

سبل البرتقال والثلث وفوارير الزبدة التي تتتابع من أجل تغذية "الشيخ المسلم" ١٩

إن سلوك قوادنا الأهالي بعيد عن الانتقاد، لا شك في ذلك. وحتى أشد هؤلاء حماساً والذين هم مستعدون لحمل السلاح لأجل الذود عن أرض الجزائر ليسوا بمعزل عن مثل هذه الأوصاف، إنهم شبيهون بأسلافهم الذين عايشوا مرحلة ما قبل 1815.

إنهم دون فهمهم الحقيقة التالية: لا يصير المرء محباً لبلده إلا متى تحول إلى رجل جدير بالانتماء إلى هذا البلد.

فما معنى التعبير عن الولاء لحاكم هذا البلد إذا كانت كل سلوكياتك تمس به وتلحق وصمة العار باسمه؟

إن جعل القائد الأهلي يبلغ درجة الشعور بمتطلبات منصبه ودرجة القيام بواجباته بضمير يقظ ونعيد التذكير بأن القياد لا يفهمون جيداً طبيعة منصبهم ولا يفهمونها تماماً في بعض الأحيان ... تلك هي المهمة التي من شأنها جلب السعادة لمواطني الأرياف. ونعتقد أن توزيع دليل تكتب فيه كل هذه الأمور هو شيء شديد الفائدة.

هنالك من هؤلاء من يرى الإدارة عاجزة دونه وغير قادرة على التخلي عنه والتضحية بخدماته وبمركزه اللامع بمجرد أن أحد أسلافه هو عين من أعيان المنطقة. وتفكير (كان أبي وكان

جدي) أحرق ومن شأنه أن يسقط من برنامج التحضير والتعمد
الذي نحن بصدد وصفه. نعلم جيدا أن هؤلاء الأشخاص المذكورين
أعماله جيدة وورديتهم دورا لا يبخس لذلك فإنه على الإدارة -
بالوزارة مع ما ذكرناه - أن تنظر في أمرهم كمستخدمين لديها
فلا تعاقبهم بدونية كما نرى وأن تعيد النظر في نظام رواتبهم
وصلته يتقاضون وبالنظر صوبهم. وتقف قليلا عند نظام الرواتب هذا
الذي لا يخلو من ثغرات فمن الغريب أن نجدهم منذ زمن بعيد وإلى
اليوم يتقاضون عشر مبلغ دخل مقاطعتهم من الضرائب. وهل
يمكن تصديق الحقيقة التي مفادها أنه على اتساع رقعة فرنسا لا
يوجد إلا قائد أهلي واحد ووحيد يتقاضى أكثر 4000 فرنكا
سنويا. ها هي ذي بعض الإحصاءات فيما يتعلق بدخل القياد :

1 شيخ يتقاضى من 0 إلى 100 فرنك سنويا.

9 شيخ يتقاضى من 100 إلى 200 فرنك سنويا.

22 شيخ يتقاضى من 300 إلى 400 فرنك سنويا.

39 شيخ يتقاضى من 400 إلى 500 فرنك سنويا.

51 شيخ يتقاضى من 500 إلى 600 فرنك سنويا.

59 شيخ يتقاضى من 600 إلى 700 فرنك سنويا.

50 شيخ يتقاضى من 700 إلى 800 فرنك سنويا.

67 شيخ يتقاضى من 800 إلى 900 فرنك سنويا.

72 شيخ يتقاضى من 900 إلى 1000 فرنك سنويا.

44 شيخ يتقاضى من 1000 إلى 1100 فرنك سنويا.

58 شيخ يتقاضى من 1100 إلى 1200 فرنك سنويا.

55 شيخ يتقاضى من 1200 إلى 1300 فرنك سنويا.

45 شيخ يتقاضى من 1300 إلى 1400 فرنك سنويا.

41 شيخ يتقاضى من 1400 إلى 1500 فرنك سنويا.

25 شيخ يتقاضى من 1500 إلى 1600 فرنك سنويا.

34 شيخ يتقاضى من 1600 إلى 1700 فرنك سنويا.

31 شيخ يتقاضى من 1700 إلى 1800 فرنك سنويا.

20 شيخ يتقاضى من 1800 إلى 1900 فرنك سنويا.

16 شيخ يتقاضى من 1900 إلى 2000 فرنك سنويا.

12 شيخ يتقاضى من 2000 إلى 2100 فرنك سنويا.

10 شيخ يتقاضى من 2100 إلى 2200 فرنك سنويا.

- 13 شيخ يتقاضى من 2200 إلى 2200 فرنك سنويا.
- 10 شيخ يتقاضى من 2300 إلى 2300 فرنك سنويا.
- 7 شيخ يتقاضى من 2400 إلى 2400 فرنك سنويا.
- 7 شيخ يتقاضى من 2500 إلى 2500 فرنك سنويا.
- 2 شيخ يتقاضى من 2600 إلى 2600 فرنك سنويا.
- 5 شيخ يتقاضى من 2700 إلى 2700 فرنك سنويا.
- 1 شيخ يتقاضى من 2800 إلى 2800 فرنك سنويا.
- 1 شيخ يتقاضى من 2900 إلى 2900 فرنك سنويا.
- 1 شيخ يتقاضى من 3000 إلى 3000 فرنك سنويا.
- 4 شيخ يتقاضى من 3100 إلى 3200 فرنك سنويا.
- 2 شيخ يتقاضى من 3300 إلى 3400 فرنك سنويا.
- 1 شيخ يتقاضى من 3400 إلى 3500 فرنك سنويا.

من الواضح أنها رواتب غير كافية تماما وأنها عديمة الصلة بالخدمات المطلوبة منهم، وهو الأمر الذي يفتح الباب أمام القيل والقال من قبل قائد يتكون حريمه من 15 عضوا ويجد نفسه مجبرا بين الحين والآخر على استقبال ضيوف نوعين عجز عن خدمتهم

براتبه فقط، بل إنها تؤكد تكون حقيقة الدعوى القائلة أن هذا التعامل هو تشجيع على السرقة. وهذا الكلام الذي لن يشكك فيه أحد شهادة جيدة على ما ذهب إليه أن نقص النزاهة لدى القيادة هي شيء كالمنهج لدى جمهور الأوروبيين وهي أمر مقبول ولو بشيء من الحدة في الأوساط الإدارية.

... إن وعي الإدارة العادي يمثل هذه الأسئلة هو وعي ربات البيوت: التجاوزات مقبولة ما لم تتجاوز الحد المتعود عليه وما دامت الأمور تسير على ما يرام¹ ولكن أين يتوقف هذا الحد الجماعي هل إن المسؤولين لا يمدون بصرهم إلى هذا الأمر بحسب مستويات تطرحهم إن الأمر بالأهمية التي تستدعي الإجابة على هذا التساؤل ومراعاة هذه القضية.

ها إننا الآن ونحن نختم السنة الأربعين لا زلنا نتحدث عن تراتبيه الوظيفة وعن تقديم وصفة علاج لأعوان الأهالي الأمنية الأولى في هذا الإطار والتي رفعت إلى المجلس الأعلى للحكم يعود تاريخها إلى 1878 وتم تجديد رفعها مرارا أعوام 1892، 1894، 1896، 1903، 1911، 1912 من قبل عدة مجالس انتخابية ولا زال هذا الأمر في طور المشروع عم 1913!

¹ Dr. Aynard ancien directeur des affaires indigènes au gouvernement général de l'Algérie: l'œuvre française en Algérie. P. 233.

أخيرا ورثتم معارضة مجموعة من الإقطاعيين تشكلت لجنة
لدراسة هذه المسألة عن كثب، وزعت في العمل، إنها تقر
مجموعة من الإصلاحات التي تراها شخصيا جيدة على العموم.
وإنما لنحو من هو متخوف من زوال نظام القياد من الثغرات
الاجتماعية المرجوة بأن المثل الفرنسية الجمهورية ومصالح رعاياها
لا تكمن في المحافظة على هذا النظام الذي أكل عليه الدهر
وشرب.

بالنسبة لمفكر همه الحق والعدل، تبدوا الظروف واقفة ضد
القياد الأهلي، وهي ظروف مردها عدم انسجام الإدارة في تعاملها
معه فهي تكلفه بمهمة عسيرة لا يتقاضى لقاءها إلا أجرا زهيدا،
ثم عن وظيفة تجعله مجبرا على تحمل مصاريف مرتفعة من أجل
المحافظة على الموقع الاجتماعي المتماشى مع منصبه الذي يملك
جائبا إداريا وجائبا آخر شكليا استعراضيا. فبمجرد مجيء مسؤول
وزير إلى إحدى المقاطعات، يجد القاييد نفسه مجبرا على تقديم
واجب الضيافة بكل ما يستتبعه من التكاليف، بعد أن يقود الوفد
الشريف.

الحاكم يتقل في زيارة تفقدية من يا ترى يستقبله؟ إنه القاييد
بلا شك أما العون أو الحاكم فهل من واجبهما فتح تحقيق قانوني؟

إنهما يقضيان الليلة لدى أتباعهما. إن مستقبل وموزع الإعانات
اللذين يقومان بمهام تستغرق وقتا طويلا يعلنان الأمر نفسه إن لا
يتوجهان على أعوان الدرك لطلب المنيب من يدفع إذن ضمن كل
هذا؟ ليست خريفة الدولة بلا شك.

ما يحدث أنه يتم اختيار القاييد من أفراد العائلات الغنية حتى
لا يتحمل محمد بن مبارك تبعات زيارته. لقد وضعت التجارب أن
الأمال التي أسست على هذا النوع من الاختيار قد باءت بالفشل،
ولكن إذا ما افترضنا أن النظام الذي نحن بصدد الحديث عنه غير
قابل للطعن كيف إذن تم - في وقت مضى - تعيين الشيوخ
وطباخ رجال السياسة أصحاب النفوذ، وفارسان البلديات المختلطة
الذين يمثل استحقاقهم الوحيد في البقاء لسنوات طويلة في الخدمة
الخاصة للسيد الحاكم أو لزوجته المحترمة.

هناك في هذا المقام ما يدعوا إلى احتقار هذه الوظيفة والتقليل
من مصداقيتها بفعل هذا الشطط. هنالك مجموعة من التعيينات
عملت على إفساد واجهة هذه الوضعية التي كانت فيما مضى
تتمتع برونق كبير. الوضع اليوم كالح للأسف الشديد والحق أن
الإدارة على أيامنا على علم سيء ومحدود بمأمراتها وعمالها بل إنها

أكثر اهتماما بعمل الداخل والخدم في البيت منها بمستخدميها الإداريين.

إنها إدارة يتجاذبها في مسألة التعيينات تياران متقابلان لا بد من الفصل في أمرهما فصلا نهائيا: إما اختيار هؤلاء القواد من بين أبناء عائلات الأهالي المرموقة من أجل استثمار المكانة الراقية والسلطة المعنوية التي لولاء الأعيان مثلما كانت عليه الحال أيام الإدارات العربية أو ديمقراطية المنظومة وعدم فتح باب الترشح لهذا النوع من المناصب الحساسة إلا لمن هو ممتاز على الآخرين بكفاءته واستحقاقه الشرعي.

وإننا لنصر بأنه في الحالتين لا بد من دفع استحقاقات المنصب وإجبار أصحاب هذه المناصب على الالتزام بمجموعة من الشروط وأداء مجموعة من المهام المحددة سلفا.

لن نبلغ درجة إرشاد الإدارة الحصيفة إلى أدق تفاصيل هذه العمليات التي نحن بصددنا فتحن واثقون أن النخبة المذكورة أعلاه ستجدر مذكرة بالإصلاحات المقترحة والتي ستشمل كل التفاصيل التي نعلمها وأكثر منها.

فلنحاول الآن التوغل أكثر في قلب البلديات المختلطة. ها هي ذي بنايات جميلة تتوسط القرية مختلفة عن باقي البيوت المتواضعة

والأكواخ الحقيبة من حيث لونها الأبيض، ونظافتها البراقة، إنها تجلب الاحترام بهيبتها الشديدة وسط الريف الجزائري. وفوق أبوابها الخشبية الجميلة المنقوشة يرقرقر العلم القرتسي، يحرسه قارسان رائعان بلباسهما الرسمي، اليرنوس الأزرق المخيط بظقائر صفراء والمرمية قلنسوته إلى الخلف.

إنها "البرج" الإداري، هنا يمكث "الحاكم"، أما الدائرة، برغم مظهر الحراس الشرسين الذي يحيط بهم، فلا يمانعون ضد دخول أي كان إلى البرج. وقد عبرنا عديد المرات ممرات وأروقة الأبراج الإدارية التي يملؤها رجال، نساء وأطفال من كل عمر، يقبعون هنالك في الانتظار المعهود لديهم كي ينادى على اسمهم لعرض شكواهم وقضاء حاجاتهم. حتى الذبابة التي تعبر المكان الصامت يمكننا سماعها.

ما الانطباع المنبعث من مكان مماثل؟ لن نتوسع كثيرا في وصف تفاصيل وجوانب هذه السلطة التأديبية المنوطة بالحكام الإداريين تحت العنوان المسمى "الأهلية"، كل ما سنقوله قد قيل من قبل. ما أكثر ما ردد المدافعون عن الشأن الجزائري ملاحظاتهم حول قسوة العمل، وسوء المعاملة التي يتعرض لها هؤلاء المساكين، وما أكثر ما سحبت الريح العابرة أصوات الذين

يقولون في دور الإداري الحاكم ليس فقط ضرب المساكين،
وتجفيف الزرع.

سعمل فيما يلي على رسم صورة بعيدة عن كل تحيز
للحاكم النمطي الذي يمكن لأي كان أن يلاقيه في الجزائر
ودون التوسع في تعداد الوقائع، يستوقفنا نوعان من "الحاكم" في
الجزائر:

ذلك الذي ينتقل بنفسه إلى الدوار يخاطب الناس، يستمع إلى
شكاوتهم أمام الملأ، يتواصل مع الأهالي، يسأل بعضهم سرا،
يخاويل بكل الطرق التوفل في أرواحهم الموصدة دون الأجنبي، كل
ذلك من أجل التعرف أكثر على عقلية من يحكمونهم، هذا
الحكم، حينما يعود إلى كرسية، إلى مكتبه، يدون ملاحظات
شخصية، ويصدر ملاحظات وأحكاما حول الإصلاحات الواجب
القيام بها منتظرا أقرب فرصة لتطبيقها.

إن هذه الجولات الميدانية ثرة الأهمية سوق أسبوعية يكبر
حجمها فإذا به يسيجها بخائط، ويبتني داخلها حوانيت وأكواخ
ضد الأمطار المفاجئة وضد حرارة الصيف، ثم يكتب إلى معينيه
كي يبنوا الطرق ويحسنوا المعابر الأساسية صوب السوق، أرض
من أراضي البنية خالية. وهو ذا ينشئ فيها مشتل، ويجعلها تنتج

أخصب المزروعات وأكثرها جلبا للربح ثم يشجع الأهالي والقيام
على الالتفات إلى ذلك الأمر واستثماره بدورهم.

أحيانا أخرى تجده يشتري معصرة زيت عند سفح هضبة ما،
يكلف بحراستها بعض رجال الأمن إلى جانبهم أهالي يساعدونهم
لفاء أجور، ثم يشتري الغلة ويحولها إلى إنتاج يشرف على بيعه فيما
بعد في المزاد العلني والمداشير المجاورة، جالبين معهم المال
ومساهمين في ملء الخزائن المحلية دون اللجوء إلى ضرائب. لتصير
بذلك الحياة أكثر كثافة، وعجلة التعامل المالي أنشط وأنجع.

لا يستطيع مثل هذا العمل أن يدهش خيال الأهالي، ثم إن
المثال سيُحتذى بسرعة والخير سيعم الجميع ليتحول الفرد إلى حلقة
في سلسلة اقتصادية منتجة وجالبة للربح والمنفعة العامة، بدلا من
بقائه خاملا يقاسم حيواناته الأعشاب والنبات.

هذا النموذج لا يوقفه تلح ولا برد ولا مطر ولا ربح، ولا تخيفه
الأخبار الأسبوعية التي تأتي دوريا لتروي فضائحه وتكشف
مستوره للمسؤولين وأمام الجميع بين يدي رجل مخلص للعمل متفان
في إخلاصه مثل هذا الحكم الجائر بخمسة أيام سجن و 15 فرنكا
كضريبة ردعية ضد كل من تحول له نفسه رفض الانقياد
للأوامر. هذا الحكم لا يصير ملجأ وحلا مخلصا، بل إنه يصبح

شيئا مضيدا، لأنه أصبح دليلا على هيبة المؤسسة ورجالها لا سمة
دالة على القهر والتسلط والتجبر.

صرامة، وحيوية، سواء في العمل أو في العقاب وفي الجزاء
الحسن. هذا هو النموذج الذي نحن بصدد، والذي عرفناه عن
كثب وعائنه بقدر يسمح لنا بتقديم الشهادة.

أصل الحكم على هذه الشاكلة؟ لا، للأسف الشديد،
فكثيرون لا دور لهم سوى الدور الذي تلعبه علبة البريد ويلعبه
أبسط إداري مستخدم في التواصل.

بيروقراطيين جد القرف، لا يتركون أبدا أفراحهم العائلية
لمصالح جولة تفقدية لأحوال الرعايا التي لا يسيرونها إلا على الورق
وكفى. أما إذا خرج فلن يسيرونها في طريق جهاز الزيارة، يعبره ثم
يفرق في المراسيم والشكليات لكي ينصرف واعدة بالنظر عن
كثب في أمور الشكاوي والمراسلات التي لا تنتهي. ثم يتوقف الأمر
عند هذا الحد. وسط كلمات ترحيب، وكلمات توديع، وكلمات
على شرف هذا وذلك، وموسيقى حماسية لتوديع السيارة الرسمية
المنطلقة من البرج. إلى حيثما أتت.

إنه حاكم لا يدري شيئا عن حال الفلاح ولا وضعية الكوخ.
ساعات عمله يحددها هو على هواه: المعنى ببساطة هو أنه إنسان

لديه ساعات عمل، إنه يقبع في بيته طوال النهار دون أي شغل، في
حين يستيقظ أحد أصحاب المصالح على الرابعة صباحا، يسير
لكي يكون على الثامنة في البرج بانتظار سعادته، لكي يجد
نفسه على الرابعة، الخامسة أو السادسة مساء، قبالة شاوش أو
جارس أو حوجة سعيد بدور، وسط البسطة الجميلة الفخمة التي
يفتني بها اعتناء جيدا رغم أنه لا يتقاضى سوى 5 فرنكات،
ولكي يقول له أحد هؤلاء الآخرين -وذلك في أحسن الأحوال- :
"غدوة"، تلك الغدوة الشهيرة. ككل موظف جزائري، مسير مجبر
على الاعتماد على الصلة الحساسة بينه وبين مستخدميه. إلا أن
الواقع يفرض عليه أيضا أن يحسب ألف حساب للصلوات التراتبية
بينه وبين مسؤوليه. إن عليه في نهاية الأمور أن يحافظ على التوازن
الحسان جدا بين مصالح الأوربيين ومصالح الأهالي.

وفي النهاية، تدفعه هذه الوضعية إلى توكيل معينيه للنظر في
أمور الرعية؛ ثم تنتهي به الأمور إلى أن يصبح لا يرى شيئا إلا من
خلال عيني معينيه، إلا أن الأجل هو أن توضع المسؤولية في
موضعها، وهو أن يتمكن صاحبها من فرض حدود لها.

إن مستخدمي الإدارة من النواب على العموم ليسوا طبقة
جادة. أحيانا نجدهم أصفر بكثير من مهام في مثل أهمية المهام

الإدارية البلدية مختلطة، وأحيانا تراهم تنقصهم التجربة... وقد لوحظ مرات عديدة على العنف للبت في الأمور.

مسؤول كهذا عاجز بالتأكيد بآراء وعديم الإحساس. إنها الصورة النموذجية للملك المسلم. بل إننا رأينا حالات لم يعمل بقاء المسؤول لسنوات متديدة على رأس البلدية، إلا على المحافظة على أمن ضفته أحد السابقين، نتيجة جميلة ولكنها غير مرضية طبعاً.

وضع الأهالي في ظل حكم مسؤول كهذا ليس خطيراً، بل إنه لا يؤخذ حتى مأخذ الجد. يحدث أنه -تبعاً لتقرير من أحد القياد- يقرر المسؤول العقاب، فيكلف المعاقب بنزع حشائش بستانه وانتهى.

إن المشرع يرى في هذا الوضع وسيلة للإنتاج والخصوبة. إن قانون الأهالي، في حال تطبيقه ضمان أكيد للأمن العمومي، وقد أعطى هذا التطبيق نتائج جيدة في مناسبات عديدة. المجنون وحده يطمع في إرسال فلاح يرفض الجري صوب غابة تحترق بالماء إلى المحكمة لمحاكمته على العصيان، أو يرغب في مقاضاة خماسي تهمة مزاج مريب يأكل عرقه مخفياً طمعه تحت اللبوس النيلية للمعمر أو الخوذة المهيبة التي تغلّي رأس قائده. هذا أمر يعرفه

الجميع. هذان نموذجان منتشران للحاكم كما يمكن أن نراه في الأرياف الجزائرية.

يوجد نموذج ثالث، أسوأ للأسف الشديد، وأقل عدداً، خاصة منذ بدأ في معاقبته وزدعه. إنه نموذج لا يفكر إلا في الاغتناء.

وقع بين أيدينا تقرير منذ سنوات، يتحدث عن مسير وعن خوجته، فينقل أن هذين لا يتلاعبان فقط بالأموال العمومية، بل إنه قد ثبت أنهما نهبا واستويا على ما يقارب مائة وخمسين قنطاراً من الشعير، وحوالي مائة خروف!!

لا ندري تماماً ما هذه الأشياء ولا صلتها بهذا المنصب. لقد اتخذت الغدارة العليا في حق هذا المسير أرفع التدابير وأقساها، بطرده رغم كونه رب عائلة وكونه على أبواب التقاعد.

لا بد من الحديث عن التجاوزات، والإقرار بوجود النقائص، إلا أن هذا لا يلقي بظلاله على الغدارة العليا التي تحتوي على مسؤولين رائعين نموذجيين محترمين.

لقد كتب بعضهم بأن "الأفعال المشينة للمسيرين، مضافة إلى الحكم القهري المستبد والاعتباطي للجماعة والشيوخ" وقد ساعدوا على ظهور جو "لا يخدم مصالح الإدارة الفرنسية" ودون

التشكيك في نوايا المؤلف¹ لا بد من الفصل في نقطة غامضة بعض الشيء.

إن الجو السائد في أوساط الأهالي، موجود منذ زمان على حالته، لا هو أفضل ولا هو أسوأ. إن الفلاح لينظر مشدوها صوب المسيحي "الرومي" الذي يشيد الجسور، ويتناقل الأخبار من قارة إلى قارة عبر أسلاك النحاس، الذي يحرك الجماد، ويحصد بواسطة قارة عبر أسلاك النحاس، وهو لا يحبه لهذه الأسباب بالذات، إن عجزه إزاء آلات قوية وسريعة، وهو لا يكتفي بالسلام السائد، يتمتع في هذه الحدود المسيحي يجعله يكتفي بالسلام السائد، ويتمتع في هذه الحدود ويتحمل أعباء هذا الوضع.

إنه يجهل الماضي، فلا حسرة لديه على ماضي الإسلام المجيد الذي لا يعرفه. وهو دون شعور "الوطن"، وطنه كوخه، ودواره، وقبيلته، والموضع الذي عاش فيه أسلافه.

الحقد الديني الذي يرباه للكافر ليس هاما إلى الدرجة التي تتداول. أما الهوة التي بينه وبين جاره الأجنبي فهي هوة الأحكام المسبقة. فما إن يجلس على مقاعد المدرسة الفرنسية حتى نكون قد ربحتاه. ويوجد مسلمون آخرون أفضاظا رغم مظهرهم الخارجي الموحي بالعكس.

¹ Charles Michel, conseiller général de Tébessa : la question indigène.

ولم لوم القياد والمسيرين فحسب؟ المترجمون، المحضرون القضائيون، القضاة والمحامون، أليس بينهم أناس مريبون تشوبهم أكثر من شائبة؟ إن هذا الأمر منقصة اجتماعية إفريقية لا ريب فيها. لهذا فإن الفرز عملية صعبة. والنظر إلى المستقبل الأفضل يطالبنا بغض الطرف على بعض النقائص التي قد نجد لها مبررا في الطبيعة البشرية الضعيفة دائما أمام الطمع، وقبالة بريق الذهب.

وإذا كانت هنالك ظروف ما، ومعطيات أو أفعال مغيرة تأتي أحيانا لكشف بعض النوايا المريبة، فتصور لنا الرجال المذكورين على غير الصورة التي كنا نراهم عليها، فإن الرجل الحصيف منا عليه معالجة هذه الأشياء بكثير من الذكاء واللطافة ورجاحة العقل والقدرة على الإقناع اللازمة.

لا بد من التعرف على بعض المعبرات بكل ما فيه من روح الخداع، ومن العمليات التحتية الخفية، لكي تفهم جيدا الجهود اللازم لمثل هذه الأوضاع وأمثال هذه الأماكن.

لذا علينا توجيه ما يجب من المدح لهذه الأعمال. وتشجيعها فعلا وقولا واعترافا بالعرفان لمن هم قائمون على تسيير هذه البلديات المختلطة عسيرة الأمر، باذلين قواهم وأفهامهم.

الفصل الخامس

أوراق الشعب الجزائري

عند دراسة الوضع الاجتماعي للأهالي، لا بد من الانطلاق
من النقطة التالية:

هنالك مجموعتان كبيرتان يمكن تمييزهما بيسر: القبائل،
عرق من سكان الجبال الأشداء العاملين في الفلاحة والساكنين
لجبال بلاد القبائل دون غيرها والبربر المعربون الذين يأهلون باقي
البلاد.

وهنالك فئة أخرى لا بد من ذكرها: الكراغلة، المنحدرون
من التزاوج بين الأتراك والبربر، أو بين الأتراك والعرب، أما العرب
بالمعنى الخالص للكلمة فلا وجود لهم.

وكل هذه التشكيلة الشعبية -وبعد وثنية سابقة- تدين
بالدين الإسلامي إلا أن عناصر هذه التشكيلة لا تفتأ تحتفظ
بعادات، سلوك، وحتى عقائد قديمة مما ترسب من ماضيها
العقيدى السابق للإسلام، وسنرى كيف أن كل بقعة وكل
جماعة وحالهم في ذلك كحال الفرنسيين في القرون الوسطى -

وتحتاجهم اليوم أيضاً، عسيما أكد لنا أكثر من مؤكدة ثقة -
تطلب شيخ طريقة المرابطين... وأولياءها الصالحين، وكراماتها
واساطيرها وحتى النبلاء وعلية هذه الأقوام - وحالهم في ذلك
كحال العوام والبسطاء - متشبهون بالمتأفزيقيات والمأوراثيات
أكثر من تشبههم بالتدين الصحيح.

سبعة أعمار أبناء ديننا تحركهم الأحكام الدينية السابقة
وكلهم مؤمنون بشدة، عند أقلية مؤمنة غير ملتزمة بالشعائر...

ولا يقرن أحدا ما نراه من إعلان بعض المثقفين وأبناء الأكابر
للانتماء إلى الماسونية، أو من اللهج بالإلحاد، "لأن المفكر المسلم
الحر مستعد دائما لإنتقاد بدائية الفكر المسيحي ولكنه لا يسمح
أيضا بالنساق بعقيدته"¹.

هذه الجواطر بحاجة أكيدة إلى تناول أعمق وتحليل أدق،
وسنعمل فيما يأتي على تبيان العوائق التي تعترض الفكر الفرنسي
- بسبب الأحكام الجاهزة المذكورة أعلاه - وتمنعه من التغلغل
في الروح العربية البربرية... إلا أن العاجل هو - بالتأكيد - وصف
نتائج البرنامج الإصلاحية للإدارة الفرنسية الهادف إلى تحسين وضع

1- André Servier : Le Péni de l'avenir, le nationalisme musulman en

رعياهم، وكذلك تبين الحالة المادية للأهالي، وهو الوعد الذي
فقطناه على أنفسنا في بداية هذا الكتاب.

سواء أكانوا قبائل بربريا مغربين أم كراغلة، فإن هنالك
تقسما آخر لا بد من ذكره لأنه يلعب دورا كبيرا وفهم الوضع
العام، إنه تقسيم الشعب الجزائري إلى "فلاحين" و"أعيان"...

والفريق الأول هو الأهم لأن ما تم تحقيقه من إنجازات يعود
الفضل فيه إليهم، فأغلبهم عمال، وهذا ما يجبرنا على تخصيص
حل كلامنا لهم.

لقد منح الفلاح للإنجاز المذكور مادته الأولية الأرض، ثم
منحه ذراعيه القويين، ولولاه، لما كانت سهول غاية سطيف ولا
النتيجة على ما هي عليه.

لا أحد ينكر ذلك، إلا أنه من الغريب أن نلاحظ أنه في كل
مرة يعلو صوت ينتصر للفلاح، تبرز إلى الساحة آراء متعارضة
متناقضة، ولا أتسرع فأقول إنها آراء على خطأ. بعضهم يقول إن
الفلاح مظلوم وأنه تعيس حقا، والبعض الآخر يقول إن وقت
التأسي لحالة الفلاح والبناء عليه لم يحن بعد.

من على خطأ ؟ من على صواب ؟

سليم من بسرعة آراء هؤلاء وأولئك.

الفرق الأول يقول إن الفلاح قد يفقد الأرض التي كان فيما سبق يتمتع بها قانون نزع الملكية حزمه من جزء هام من أرضه، ثم أوامر الحظر المصادرة على الأملاك التي كثيرا ما تأتي بسبب خارجين عن القانون، وتتورط الفلاح من حيث لا يدري فتصادر أملاكه بسبب عمل إجرام ما.

وما بقي من عمة تكسره الأيام وغنت الوضع وهو - كما نرى - معرض لأشق الأعمال كلها حراسة الغابات، النقل الرسمي، شرطة القرية... وإذا شئنا الاختصار نقول إنه مثقل بواجبات كثيرة دون كثير من الحقوق، إذا ما قورن بزميله في فرنسا أصحاب هذا الرأي من أهل المنطق والحسابات الجادة المنظمة الذين سيقنعونك بيسر كبير.

أما الفريق المقابل فيعارض هذا الرأي قائلا: لقد وجدت مظلمة دائما في التعامل مع هؤلاء الفلاحين: لا نقاش في هذا الأمر، وإذا كان هذا التفاوت وهذا النقص الفادح في العدالة في معاملة الفئة التي نحن بصددنا أوضح اليوم أكثر من ذي قبل فإن ذلك قديم معروف متعود عليه لدى الأهالي.

نلاحظ في كل من إنجلترا، ألمانيا وفرنسا تفاوت كبير بين أصحاب الثروات الطائلة لسبب واحد هو الصراع الاقتصادي، فهذا الأخير هو الذي سمح بوجود هذه الأوضاع أنه مريض من أمراض العصر، إلا أنه مريض غير خبيث.

إن هذه الطبقة العاملة، والتي كانت بالأمس القريب طبقة ملاك صغيرين، بلا مداخيل، مجبرة على المغامرة باستثماراتها التي ينهبها الناهيون في ظل عدم الاستقرار والفقر أكثر فأكثر.

إذا كان عدد الملاك قد نقص في الجزائر فإن الأجور قد ارتفعت بطريقة مشهودة، إن قطعة الأرض التي كانت بحوزة الأهالي لم تكن تجني له من الربح أكثر مما يتقاضاه اليوم في ورشاتنا. إن شبكة الطرقات والسكك الحديدية، وكذلك ما تم تشييده هنا وهناك من المرافق العمومية هي ثروة ذات منفعة عامة لا شك أنها لولانا لما كان الأهالي ليحلمون بها.

ما الرأي السديد في كل هذا ؟

في الواقع، من الخطأ أن نهمل لسعادة محمد بن مبارك للرخاء الذي عمه، ومن الخطأ كذلك أن نصوره بكلمات مسمومة خبيثة على أنه يبرأ في أعظم شقاء.

لقد عاش الفلاح منذ القديم على الكسرة والماء. كسرة
جمع، شعير أو درة - حسب المنطقة وحسب الفصل - ... كما يعيش
على الحشائش، بسبب نقص تدبيره، حالة في ذلك كحال
الصرصور الذي يداهم الشتاء في الحطابة المعروفة، أو بسبب الغل
الفيض أو القصور حالة الحقيقية هي أنه ما أن تأتي النسائم
الباردة حتى يأتي الجوع، ولقد رأينا جلياً - ومراراً - تلك النساء
أشباه الميتات بالوجوه التي أفسدها الشقاء، وشحبها الجوع، وهن
منكبات بسيفاتهن العارية على الأرض اليابسة على أمل اقتلاع
بعض الجنود القابلة للطهي والأكل، بأي شكل من الأشكال ثم
إن سكن الفلاح هو "القربي" أو الخيمة القديمة، ذلك من قديم
الزمان مساكن غير مريحة، برد فارس في الشتاء وحر قاتل في
الصيف

البرنوس الصوفي والقندورة الكتانية هما لباسه بامتياز،
معرض لكل الأمراض والأوبئة التي يعرفها كلها، كثير منها
سلبه بعض أبنائه وخلف له دموعاً علمته المواجهة بصبر وسلوان،
السل والسيفيليس لا يعرفانه أبداً، أو أنه هو الذي لا يطلع على
حاله، ولا ينتبه أصلاً إلا أنه مصاب بهما، يكتفي في النهاية إذا ما
سقط كجذع الشجرة متهيناً للموت - بترداد عبارته المرجعية

مكتوب ربي" - تلك كانت وضعية الفلاح قبل 1830، وتلك هي
وضعيته اليوم، مع اختلافات طفيفة.

أقول أن الوضعية لم تتغير تماماً لا طبعاً لأن هنالك واقعاً
أكبداً هو أن الجرائر بصدد مرحلة رجاء غير مسبوق، ولا بد أن
هذا الرجاء الذي هو حصيلته جهد المزارعين والتجار والصناعيين
والموظفين، قد عاد على الفلاح بنفع ما، إلا أنه لم يستفيد استفادة
غيره.

وهذا هو النظام العادي للأشياء، بما نصنع فرصة البعض لا
يصنع بالضرورة فرحة البعض الآخر، الذي هو الفلاحون وهو أمر
كنا قد أشرنا إليه في أكثر من موضع، والهدف الملح اليوم هو بلا
ريب إعادة الاعتبار لهذا الفلاح الشيء الذي إن لم يتم أدى إلى
التشكيك في الرخاء المذكور أعلاه.

إن بزامج تحسين وضعيته لا غبار عليها عموماً، وسيظهر هذا
ساعة تطبيقها لا شك في ذلك.

هذا دور هيئات الاحتياط وصناديق التوفير التي يعمل هو،
جزئياً، على تأكيد مواردها بشكل ما (مدخول اليوم يجاذي 25
مليون)، المبلغ محترم ويسمح بتحقيق الكثير إن لم تسقط مصيبة
ما تأكل ذهب البلد.

بمعل جدير بالحمد والنشأ ولا يلتفتن أحد إلى الأقاويل الجارحة والانتقادات السلبيه النافهة التي تأتي لتحضير عمل هؤلاء : وما ذلك إلا تجل صارخ للنفسيات المريضة وللخلفيات النفسية المرضية.

لقد استقبلت هذه العيادات عام 1911 حوالي 12000 مريضا من ضمنهم 2000 امرأة و1500 طفلا¹. والفلاح يقصد هذه العيادات لأنه ليست بعيدة عن مسكنه، ولأنه يجد في الممرضين المسلمين عزاءا أكيدا. إنها مؤسسة ممتازة جديرة بالتشجيع وحتى بصرف العلاوات والزيادات.

أخيرا، وجب ذكر كون المساعدات المقدمة للعجزة من أهم ما يحلي من همّة الفلاح، تخيلوا النتائج التي كنا سنبلغها لو أننا صرفنا ما أضعناه على إنشاء المدارس (الألكواخ على رعاية المسنين والعجزة)¹.

إن هذه نماذج من الإصلاحات الإيجابية التي تعمل بلا شك على تحسين الوضع المادي للفلاح، وهو الميدان الرئيسي الذي ينبغي أن تصرف فيه الأموال الجزائرية.

ومع ذلك فالوضع يظل مزريرا إلى حد بعيدا ولاسيما وضع المرأة! إن المسكينة لا زالت أمة تستعبد بها الأشغال الشاقة ولاسيما

إلا أنه لا مهرب من انتقاد هذه الهيئات لأنها من خلال التوزيع السيئ لأموالها، لا تقوم بواجبها المذكور أعلاه، إلا أن المؤشرات تبين بحد أفضل، أهم الإصلاحات الواجب التعجيل بها كما قلنا مرارا فيما سبق هي أن يصبح المسؤول الوحيد عن تحديد قوائم المستفيدين من القروض والتعويضات هو رئيس البلدية وحده : وإنا ندعو المسيرين والحكام أيضا إلى السعي حتى "الدواوير" لمعاينة ذوي الحاجة الحقيقيين، بهذا الشكل فقط يمكن ضمان نزاهة العملية.

إن هذه الهيئات شيء هام جدا ولو ضمن صلاح عملها ونجاحها وضمن توسيعها على نطاق محلي فإننا سنضمن تغييرا كاملا للأوضاع، وانتشارا للتضامن.

ولا بد من أن نتذكر دائما أن الفلاحين - بحكم ديانتهم أصلا - أناس عجولون على التضامن. إضافة إلى كوننا مؤمنين أشد الإيمان بالمبادئ الاشتراكية التي لا نفتأ ندافع عنها، ونردد بناء على ذلك الكلام حول أهمية المكاتب الخيرية أيضا من الأعمال الهامة التي تسد حاجات الكثيرين ممن هم في عسر.

من أجل تحسين الوضع المادية للفلاح أيضا يأتي إنشاء الثمانين عيادة بلدية، إن أطباء التعمير والمساعددين الطبيين يقومون

جلب الماء وجمع الحطب : وهذه الأخيرة مهمة لا بد من التفكير جدياً في إعانتها منها وإكاد أراها أكثر معاناة من الرجل نفسه من نظام "الخماسة" الذي يحرمها في كثير من الأحيان حتى من الإعانة القاعدية للزوج

إنه نظام "الخماسة" هو الجرع الحقيقي للفلاح الجزائري إنه السبب الرئيسي لتعاسته (النظام الذي يجعل المزارع لا يعطي عماله سوى خمس الغلة).

إن هنالك وجهاً من وجوه الانتقاء يكفي وحده لتحكيم فكرة هذا النظام من أسسها : في حين تتعقد أعمال الفلاحة من عام لآخر، نرى مدخول الخماس يتناقص من عام لآخر، وذلك يلازم من التزايد (أو على الأقل المحافظة على الوضع على ما هو عليه).

فاللآل تزايد من عام لآخر بفضل الآلات والماكينات، والخماس لا يستفيد من هذا الوضع المتطور والسريكم في عقلية المزارع المتجربة فهو، بتطور الأعمال يجد نفسه مجبراً على استدعاء عدد متزايد من الفلاحين في كل سنة في حين أن التخصيب المحدد للقسيمة (الخمس) يظل على حاله رغم تضاعف عدد المقسوم عليهم. الأمر المؤدي إلى تناقص حصة كل فلاح.

ولنحكم على الوضع بهذا المثال :

نحرف 80 إلى 100 هكتار من المرتفعات نحتاج إلى ثلاثة محاريث، قديماً كانت المهمة تحتاج إلى الخماسين أما اليوم ومع تطور شكل العمل فتحتاج إلى جانب كل محراث إلى ثلاثة خماسين، والواقع أنه يوجد دائماً 4 خماسين أي أن عدد العمال قد تضاعف، وبذلك سواء كانت سنة جيدة أو رديئة فالأرض حسنة التربة، يعطي الهكتار الواحد المحروث بالمحراث الفرنسي منها مردوداً يقدر بـ 10 قناطر من القمح.

3 محاريث تعمل في 30 هكتار تعطي 900 قنطاراً، $\frac{1}{5}$ منها يعادل 180 قنطاراً هي حصة الخماسين، هذا المقدار الذي كان يقسم قديماً على 6 خماسين صار يقسم اليوم على 12 خماساً، حصة كل واحد لا تتجاوز 15 قنطاراً، مدخولها (على اعتبار 25 فرنكاً للقنطار) لا يتجاوز 375 فرنكاً.

فإذا افترضنا أن القنطار الواحد يعطي 20 قنطاراً - وذلك لا يحدث إلا في أحسن أحسن الأموال - فالمدخول لن يتجاوز - مع أفضل الفرضيات 750 فرنكاً أي 60 فرنكاً لكل شهر.

ما هذا ؟ من القالة حتى بني صاف، شعب برمته مجبر على العيش بهذا الشكل المزري ؟

أضف إلى ذلك أن عائلات الخماسين كلها كثيرة الأفراد، وهذا ليس من علامات الرخاء حكما أسبقنا -

عائق آخر من عوائق نظام "الخماسة" يكمن في أن الفلاح لا يتقاضى ما يتقاضاه إلا في نهاية الموسم، فعندما يستخدمه مزارع ما لا يكون لديه مال يذكر لذا فهو يقترض كل شيء فيدفع إزاء كل ما يقتنيه أثمنا هي أضعاف الأثمان العادية (وهذه طبيعة القرض).

أما مقدم الأجر الذي يعطيه المزارع المستخدم للفلاح فهو بكاو لا يساوي شيئا، لهذا يجد نفسه مجبرا على الاستعانة بالطلق، إنه لمن الغرابة أن نجد لدى أهالينا الأذكىاء تحريفا قاطعا للاقتراض المتعارف عليه في المضاريف والتعاملات والذي فائدته 5% لكي نجدهم يقولون ببساطة قرضا آخر نسبته 100% 1 ... القروض الأولى محرمة باسم الشريعة الإسلامية، أما الثانية فهي مهيأة للفلاح لأنه يقترض في مارس ما قيمته 40 فرنكا ليرد دينه في أغسطس وقد صار 80 فرنكا... ولهذا الأمر منطقته لدى الفقهاء والمشرعين، ولدى الفلاحين أيضا تباعا لذلك¹.

¹ الأمر مشرع بضمير، من الجهد لعل فيها وليس بالشكل الذي تعرفه.

هنالك أيضا القرض الذي مادته مال صرف وفائدته سلعة، فكثيرا ما يقترض الفرح 20 فرنكا في الربيع مثلا على أن يصاحب رد الدين في الصيف كمية من القمح تعادل 10 فرنكات، وكانها فائدة ب 50% لمدة 3 أشهر.

هاتان العمليتان يشرحهما المشرع "سيدي خليل" ويقردهما لهما فصلا كاملا، إنه لمن الغريب أن يحتوي التشريع الإسلامي المعروف برأفته الشديدة (خصوصا بالنظر إلى الفترة التي جاء فيها) عمليات مثل التي ذكرناها.

ثم إن الأمر قد ساء، لأن كل قانون معرض بالضرورة للتحريف.

لقد حدث أن حاولنا شرح محاسن الفوائد على القروض التي تتعامل بها البنوك وبيننا أن ما يصاحب الديون في المعاملات المذكورة أعلاه يعادل مالا ومالا طائلا، إلا أن السعي خاب.

لا نقاش! هكذا قال الأستاذ!

إن هذه المعاملات قصيرة المدى واسعة الأرباح قد تفشت وتجاوزت الأهالي المسلمين إلى المعمرين المسيحيين وخاصة اليهود الذين اتفقوا إلى الفائدة الكبرى الكامنة خلف هذا الإجراء

الإسلامي" فرضوا بالإسلام ديناً للتعاملة وكلنا نعي ما خلف هذا التسليم الجزئي "للمسيحيين واليهود من أضرار على المعوزين.

المدارس، المحاكم، والناظر كل من يفقه حرفاً يمدح هذه المعاملات المهلكة ويختفي خلف الدين مبرراً رأيه ولا أحد يلتفت صوب الحق، والواقع أن جل من يتحدث عن هذه المعاملات هو ببسبب تحضير نفسه لمرحلة الاستفادة بدوره من أرباحها.

كيف يعبر، بعد هذا، أن تفسر الثروات الطائلة التي تشكلت بسرعة جنونية على عاتق الفلاحين ؟

أما الأهالي الذين يخضعون لهذه المعاملات فلا تملك إلا أن نلزمهم بالجوع مهلكة كما يقال، فإذا عجز بعد ذلك عن التسديد فلا غرابة قلي الأمر !

حدث ذات مرة أن أحد القضاة كان في مواجهة دعاوى قضائية لقروض غير مسددة، ورغم الكمية المذهلة من الوثائق المؤيدة بالمقرضين إلى الهلاك إلا أنه قدر ألا يحكم بشيء في حق هؤلاء سوى بإراء مدخولهم المقبل من القمح وهو أجزاء صغيرة من أصل الدين كانت أحكامه مدوية إلى درجة أن المتعاملين بالربا الغوا من وثائقهم مضططح "الطلق" وعوضوه "بالقروض" فما كان إلا

أن حكم القاضي المسكين فيما بدر لاحقاً من الدعاوى بما شاء المقرضون على المقرضين.

هذا يثبتها إلى حد ما بمدى خطورة هذه المعاملات وما علينا سوى معاينة العدد المهول من القضايا المثيلة التي تظهر كل خريف. لقد صار شهر سبتمبر الشهر المفضل لدى المحضرين القضائيين، المترجمين، كتاب الضبط والمحامين.

هذه هي أضرار نظام "الخماسة" والحال تزداد سوءاً في فترات الأزمة، ففي السنوات الأخيرة أدت وفرة اليد العاملة إلى تدهور حال الفلاحين إلى درجة لا تطاق، لقد شهدنا حالات دفع فيها الفلاحون رشوة للمعمرين كي يدرجوه في الخدمة.

هل يمكننا أن نحلم بأن تتحسن ميكانيزمات هذا النظام المهلك ذات يوم ؟

الأكيد أنه لا بد من تغييره وإصلاحه، الأكيد أيضاً أن حركة الإصلاح لا بد أن توكل إلى أشخاص لا صلة لهم بالخواص الذين سيرون ذهاب النظام الذي يضمن لهم الثروات الطائلة فيعملون -آنذاك- بكل جهدهم كي تستمر الأوضاع على ما هي عليه.

لقد حدثت منذ سنوات أن أنشأ أحد الأهالي المتتورين تعاونية هدفها محاربة فكرة رشوة التوظيف التي ذكرناها، ورغم ضيق دائرة التعاونية التي انضم إليها مجموعة من الفلاحين إلا أن الأمر حال انهمرين فقصوا عليه بأن كتب أحد المعمرين رسالة مجهولة نصف التعاونية بالرغبة في الثروة وتقترح في "الشباب التركي" الذي يديرها، وما كان من المسير في إطار التهديئة التي هي دورته الرئيسي إلا أن نصح الشاب التركي الذي كان يعرفه جيدا بأن يحتفظ لنفسه بنواياه وأفكاره الحسنة.

إننا لا نلومه أبدا، إلا أننا نقر ونؤكد بأن الإدارة هي وحدها الكفيلة بالإنجاز بإصلاحات جدية في هذا النظام الجائر، وستكون مناسبة جيدا لها كي تثبت مرة أخرى بأنها ليست سجيئة مصالح ملاك الأراضي.

إننا نقولها كلمة حق لا لصالح الإدارة دون أن نكون من يبالغون برضاها أو سخطها مفادها أننا ننظر صوب هذه الإصلاحات ستم ما أنت - بعين الرضا والاستحسان ونعتهم هذه الفرصة كي نشيد بمبادرة أنها الإدارة بإنشائها للتكوين في زراعة الكروم، وهي مبادرة تدل على الرغبة في تطوير اليد العاملة للأهالي؛ إذ أن 60 قبايلا شابا بصدد التكوين حاليا، والنتائج المحصلة ممتازة

وسيمكنون من المفيد جدا تشجيع هجرة الأهالي صوب فرنسا، ففي ذلك دعم مادي ومعنوي معا.

منذ أشهر أنشأ أحد المسلمين مكتبا لتنظيم هجرة الأهالي وتدير أحوالهم ووظائفهم في فرنسا، وهذا النوع من المبادرات من شأنه التخفيف من أضرار ظاهرة نظام الخماسة.

من جهة، سيعمل اندماج عمال الأهالي وسط الورشات والمصانع في المدن على تغيير الهنات وتخليص أبناء ديننا من أحكامهم المسيقة، ثم إن مغايرتهم للوضع الحضاري فيها وراء البحار سيجعلهم واعين بالعظمة الفرنسية وهو وعي سيسرب منهم إلى غيرهم عند عودتهم.

أما من وجهة النظر الاقتصادية فإن تواجد هؤلاء في ميدان العمل الفرنسي ومناقشتهم لليد العاملة الواردة من بلدان مثل ألمانيا، إسبانيا، إيطاليا وبلجيكا، سيسمح ببقاء جزء هام من الثروة الفرنسية على الأرض الفرنسية.

أما من ناحية أوضاعهم المادية، فالخير أظهر وأعمق، فالأجور مرتفعة في فرنسا أكثر مما هي عليه في الجزائر، القبائلي الذي يربح 6 فرنكات في توكوان أو في ليل يمكنه توفير نصفها لأهله في الجزائر.

ما هي ذي كلمات السيد هوغ لورو Hugues Leraux تقطر
حسنا وبلاغة على ورق جريدة لوبوتي مارسيني Le petit
marseillais

ثم أنهم (القبائل) يلحقون الخير بالجميع، إنها أموال طائلة
تتأطل على البلاد مع نهاية كل أسبوع على شكل طوابع
التحويل، إلى درجة أن العفل تضاعف ضعفين كامليين، أكثر من
مليون ونصف ثم تحويلها خلال أشهر قليلة فقط صوب جبال
جرجرة وغاية أكفادر وقرى سباعو، أين لم يكن للناس شغل
سوى التفرج على الوقت يمضي فيما الكلاب تنبح انطلال الوهمية.
إن المعمرات الإسلامية أحسن حالا - حسب السيد ليال في
جريدة الرشيدي - من باقي المعمرات المتوقعة في المدن الكبرى
وعلى كل حال فإن النتيجة هي عمال وجنود لصالح فرنسا، ورخاء
ونعمة لصالح الأهالي... هذه هي الوصفة المثالية للهجرة المثلى.

قد تكون هذه الهجرة حلا لنظام الخماسة الجائر، إلا أننا
نساءل: أليس بإمكان الإدارة التي هي الراعي الرئيسي لرعاياها
الأهالي أن تتدخل من أجل تنظيم عمل هذا النظام باقتراح حلول من
قبل تحديد عدد العمال على المحرات أو إجبار الملاك على تشغيل
عمال مياومين (ذوي أجره يومية) ؟

أليس بإمكان الإدارة إنشاء تعاونيات من خلال جمع شمل
ملاك ومزارعين متجاورين لأجل إنشاء تعاونيات إنتاجية
واستهلاكية في صلب أراضيهم الزراعية هدفها تسيير حال
الخماس وارساء نظام "الخماسة" على قواعد غير التي هي عليها.

إن إصلاح هذا النظام ممكن بل إنه ضروري لقد أعلننا كل
الأصوات الممكنة من أجل إظهار المدى الكبير للشرور الذي
يخترنها هذا النظام، ولا زلنا نصرخ بكل الطرق بأن الإدارة
الفرنسية قادرة على تغيير هذه الحال، وستتمكن آنذاك مما لم
يتحقق منذ قرون طويلة: تحرير الفلاح من أحماله القديمة.

أرادت أن تنال الإجلال وربما الخلود فعلينا أن نعمل على
الانتصار للطبقات الأكثر حرمانا هؤلاء الفلاحين الذين لا
يملكون لا ذهب الأعيان الذين يمكنهم من الاستغناء عنها، ولا
بلاغة النجبة التي يسمع صوتها دائما من به صمم.

إضافة إلى كونها الأكثر عددا والأكثر ضرورة للنماء
والرخاء وقد أوضحت التجارب مرارا أننا لا نستطيع تسيير بلاد
يرمتها بالارتكاز على الأقلية.

ثم إننا نساءل: ماذا جئنا من الامتيازات التي مكنا منها تلك
البرجوازية الكسولة المعروفة ؟

هل أعطت هي هذه الشبهة من الأهالي الذين درسوا على
مقاعد المدارس الفرنسية والتي لا يمكن أن نغفل قيمتها رغم
الانتقادات الموجهة لها ؟

لا ، قطعاً هذا الجيل يعود فضل إنشائه إلى سواعد الفلاحين
العاملين بصمت وهدوء.

الخلل عندنا مثلها في فرنسا في القرون الوسطى إذ لا يمكننا
الاعتماد على أبناء الطبقة البورجوازية ليوصلوا إلى أعماق الجبال
والقرى القبائلية الأفكار التوجيهية والأحكام المستحسنة للتقدم.

وسط أبناء الفلاحين فقط يمكننا أن نجد الأفراد الذين
يسهل إدماجهم فوراً، الشعب وحده يمكنه الارتقاء بين أحضان
أمة بالتبني خلوا من كل أفكار مسبقة. هو وحده يمكنه أن يمنح
أبنائه يدا جنوباً مستقيمة، لأن الأمر لا يخلّف عنه شجنا على ماضٍ
ولّى ولا على حاضر ما ، إنه عاجز عن تثقيف أفكاره ومشاعره ، إنه
لا يكره في غالب اليوم ما كان يكرهه بالأمس ، فالأمة التي
أعطته التربية والتعليم ، والتي تعمل على حمايته وحماية أهله ورعاية
رزقه وحيثوقه هي أمة سيرتني بيسر بين أحضانها.

لن يفعل الشعب ذلك بالحرارة المرجوة على الجبهة الفرنسية ،
إنه شعب لا يستطيع فعل ذلك لأسباب تاريخية ، إلا أنه سيعمل شيئاً
هشيباً على الانتماء إلى العائلة الفرنسية الحاضرة له.

آنذاك ، ستتحرك البورجوازية المهانة سنفهم أن هنالك بناء لم
تشارك هي في إنشائه وفوتت الفرصة على نفسها للزيادة في هذا
التشييد ، ولا شك في أنها ستتهاوت صوب ذلك البناء لاستدراك ما
أمكن وتتمنى أن تجد البناء بأبواب معلقة مكتوب عليها : "ممنوع
الدخول".

ستناول فيما يلي أمراض هذه الطبقة تثقلنا لمقاطع مما
كتبناه - وأسأل كثيراً من الحبر وحرك كثيراً من المشاعر - على
صفحات "لاديباش دي كونستانتين La Dépêche de Constantine".

الفصل السادس

أمام أسوار التعصب

سيصدر بعد أيام كتاب لا بد أنه يحمل إنارة جيدة من خلال وثائقه لأوضاع المجتمع المسلم في الجزائر عموماً، وفي قسنطينة على وجه الخصوص.

لا شك أنه سيروق الجميع، سواء أكانوا على ضفة الأهالي وكانوا من مؤيدي الخرافات والأحكام المسبقة، أو كانوا على الضفة الأخرى من الحاملين بتغيير الروح المسلعة، كلهم سيقروون بشغف.

سيحمل هذا الكتاب بين طياته ضربة كبيرة - كما نأمل - للخرافات التي جاءت لتعقد معتقداتنا الدينية التي هي في الأصل بسيطة سيساهم هذا الميسم المشتعل متى ما وضع على إحدى أفدح جروحنا الاجتماعية - التعصب - في الإسراع بالجموع ضوب التحرر الذي تعمل عليه فرنسا على قدم وساق في شمال إفريقيا.

كتاب هادئ رزين، لا عنيف ولا عدواني. صادر عن ذهن حصين لرجل مجرب، طريقته هي التمهيد لأفكاره بسلاح الإقناع. لا أحد سيجرؤ على إلحاق تهمة الجهل ولا التحيز بمؤلف هذا الكتاب: السيد مجاوي عبد القادر لم يحظى به من تقدير لدى المسلمين ولدى الأوروبيين، ولإحاطته الجيدة بشؤون الأهالي، وكذلك بفضل شعبيته في البلاد التي أعطاها 40 سنة من حياته معلما ملاحظ من خبرة الملاحظين، الأستاذ الفصيح في المدرسة العليا للجزائر العاصمة معزوف في الدوائر المثقفة بفضل أعماله السابقة المنبئة عن فهم سيكولوجي عميق وتفكير دقيق رصين والكتاب الذي هو بصدد الانتهاء منه سيمدح كثيرا لصراحته وتوثيقه الجاد. وما هي ذي حيثيات الكتاب.

في شهر أفريل من عام 1910، ظهر في العاصمة على صفحات النجم الإفريقي التي يشرف عليها السيد المحترم ككحول، مقال فيه نقد وتهكم لاذعان للأحكام المسبقة وللأخطاء الجسيمة للعالم الإسلامي، ولما أن كاتب المقال كان السيد بن موهوب فنزل وبال من السخريات على أهالي منطقة قسنطينة والواقع أن الشاعر لم يفعل سوى إعادة ما لقيصر لقيصر، ولا أحد سيكتشف العجلة إذ

قال أن ظلمات الجهل أشد حلكة في قسنطينة منها في مواضع أخرى.

إنه لقدر غريب أن يكون هذا هو مصير المدينة التي شهدت مولد أبي البركات بن باديس، عبد الكريم بلفقون، الشيخ الحفصي، عبد القادر الراشدي وجمهرة أخرى من أهل العلم.

كان لذلك النقد إذن وقع معين وكان أن جرح تلك النلة التي تتخذ من صفة "عربي" و"مدني" لافتة امتياز وعلامة تفوق، تلك البرجوازية المغرورة المتنفخة كالديكة والتي يملأ أهلها ساحات العمومية ومما تسمى مدينتنا.

وليس الأمر بالجلل في الواقع لأن الغضبة غضبة طبقه نافهة خالية من كل أهمية، كل ما حدث هو هزة أصابت حمول هؤلاء الكسالي وعدم إحساسهم وحسنا فعل من فعل !

معروف لدى الجميع أن البربر هم من ي أهل هذه المنطقة من شمال إفريقيا منذ أقدم الأزمان؛ لقد لاحظ ابن خلدون في "المقدمة" قلة أعداد العرب الأصليين هنا وذلك حتى في المدن الناطقة بلغة الرسول - ص - .

إننا نجهل أصل سكان هذه البقعة بالتحديد وذلك رغم الأعمال الجادة لمباحث الأستاذ كولينيو في تونس - ما تعلم

يقينا هو أن هناك متنوعة من المهاجرين قد مروا بهذه الأرض
تاركين ميراثهم ولغتهم، ولهذا فإننا نستغرب وجود لقب يهودي أو
فينيقي في "الأوراس" أو في جبال "بابور"، إلا أن هذا لا يعني
بالضرورة وجود وحدة معينة في الأصول بين هؤلاء جميعا.

اليقين الآخر هو أن العرب قد أدخلوا الإسلام إلى هذه المنطقة
لا ريب في ذلك، إلا أن القرون الأخيرة الصامتة تجعلنا نتساءل عن
الشرعات الظلامية والفكر الغيبي، ما أصوله وما خلفيات، أم أنه
هو أيضا ركام من الأشتات؟

ينقل الأستاذ مجاوي بعض صور العلاج من المس قائلًا:
"... وإنك أيها المشاهد المنطقي العاقل ستفاجأ لا شك وأنت ترى ما
نم نره عينك من قبل!

أفراد من الجنان من البلاد وأخرون من العامة، وبنات النبلاء
يسكنها ساكن من نبلاء العالم الآخر، والنبيلة إذا شفيت ممن
تتقاسم مع زوجها مقاماتها النبيلة تقيم حفلا صاخبا... عرس كبير
بمناسبة خروج خليف الشرف النبيل الذي ستتوسله مرة أخيرة ألا
يرونها ثانية! مشاهد في قمة الغرابة، وكلام أغرب من المشاهد
(إلا أنني أظن المشاهد غير المتعود على كل هذا أنه لا خوف على

عقل عاقل ولا على منطق صاحب المنطق رغم أن ما يراه مقرف
مقزز مثير لكل من له أدنى درجات الحياء والكرامة!).

"سياتيك مراسيل الدهشة ويأخذونك على غفلة من نباهتك
إلى أراضي الاستغراب النائية، وتستجد نفسك بلا ريب في سؤال
وحيرة: هل أنا في منام أم أنتي صاح؟

أدهش ما سيدهشك هو تلك الشاة البيضاء الناصعة، التي
تلاعب بها القدر فأبعدتها عن ذويها ورمت بها وسط عالم السحرة
والمشغودين هذا... تحيط دائرة دائرة من النساء، "الشوافات"
ومساعداتهن، وبعض المريضات، كلهن بألبسة باهرة وحلي فاخرة.

وتقف على الشاة المسكينة التي سيتم حرقها فأبعاد الروح
الشريرة التي أصابت إحدى الحوريات البريئات في الفجر الناصع
لحياتها الفضة. تقف إذن بلباس ناصع البياض، وبزينة مشيرة وحلي
مدهشة، تمسك بيد سكين أو سيف، وباليدين الأخرى تشكيلة من
الأشكال الغريبة والأدوات والأحجار العجيبة التي تحركها
بحركات غريبة وتضرب بها صدرها ثم خصرها وجانبيها وكل ما
يمكنها بلوغه من أعضاء جسمها.

الشاة نفسها مزينة محلاة بعناية فائقة، ذهب، فضة، ألوان،
أحجار كريمة، تقاطعات براقعة على الوجه وبين العيون، خيوط

برافقة، تلح، أطواق ملونة... وتتسع الدائرة المذكورة بغثة ليعم
الصمت قاعة العلاج... (لأن الأمر أمر علاج في النهاية!) فقط
وصيقتان مقربتان تظللان قرب المسكونة بمسكان يذراعيها فيما
حسمها يتخلل جينة وذهابا، يمينا وشمالا متخذا بين الحين والآخر
أغرب وأدنى الوضعيات والأشكال والتشوهات الممكنة.

ثم تصيب الحرارة المشهد كله فيعلو صوت الطبيلات الصغيرة
وسط الهرج والمرج المتصاعدين على جنبات الولولات الصاعقة،
والحرارة والأبخرة تتصاعد من الجمع المتفاعل حدًا خنقك
وتعميتك.

ويديم المشهد إلى أن تسقط "المسكونة" أرضا منتشية ذاهبا
رشدها وسط البخور، وتختلف آنذاك الخروف لأولئك المنتظرات
الوافقات الكثيرات واللواتي ما أن يتعين حتى يشرعن في
"التضحية" تجر الشاة إلى مكان الذبح وسط الثغاء والشكوى
الحيوانية "بلحمر" المرعب حتى اسمه، أما "الله" العلي القدير فلا
يجرؤ أحد على ذكر اسمه، وعند مذبح القرايين تمد الحورية
المسكونة المسكونة يديها مرتجفة لالتقاط الدم المقدم ثم شربه
وهو ما تفعله الحاضرات جميعا الواحدة تلو الأخرى، حتى تنالهن

قدسية الدم الآتي من ذبيحة ذكر عليها اسم الجن لا اسم "الله"
العلي القدير.

"ثم تشرع الأصوات كلها بغثة في التناقص، هل هو هذا
المهدي الغريب الذي فعل مفعوله ؟ لا، إنهن المغنيات اللواتي ينادين
للغشاء، طاولة فخمة فاخرة عليها ما لذ وطاب من مختلف الأطعمة.
هنا، على هذه الطاولة سيملا الجن ونقره معداتهم الفارغة، بقية
الطقس المحترمة بعناية كبيرة هي: الأكل، الحديث وتبادل
الانطباعات حول ما ألمّ بهن من مشاعر أثناء الرقصة، في هذه
الأثناء يقرر "الجن" إن كان سيرحل أم لا !

... وتظل هنا في حضرة امرأة مريضة، يضيف مجاوي ملك
الجان هذا الذي يتسكّل من الأعالي والذي لا وجود له إلا في أذهان
شعب متخلف تعمّره الأحكام المسبقة، هل هو موجود ؟ هذا الملك
الذي آتانا من عالم الأخطاء والجهل هل سيذهب لسكنى آخرين ؟
إطلاقا، في العام الموالي وفي الوقت نفسه سيعود لسكنى جسم
التي استقبلته أول مرة بكرم إنها العادة !

وهذه هي عادة تختص بها طبقة معينة من أبناء الأكابر
القسنطينيين، أما موظف مثلي ومثلك، أو فلاح أو أي شخص آخر،

فلا حذارة له كفي يحسن استقبال كاشن عالي الشأن بتلك
الطريقة الرفيعة.

هنا استطعنا أن نضع فلا بد أننا سنصرف زوجاتنا وأخواتنا
عن الأمر لئلا لأهله ليس كذلك ؟

ما هذه المراسيم الثقافية ؟ لا شيء سوى عادة شاذة اخترعتها
وتحافظ عليها نساء شاذات يعملن - كما يقول مجاوي عن
صدق - على خلاء بيوت عوائل كثيرة، إن هنالك الكثير من
الرجال يسيلون دمهم لإشباع الرغبات الشاذة لنسائهم.

هذه العادات مضائب فعلا ونضيف إلى قول العالم الجليل
بأنها مضائب كبيرة إلى حد العجز عن معالجتها لكثرة ما
يواجهنا من العوائق في مسيرة هذا الصراع...

ها هو نموذج من العوائق، ولنتأمله إنه دال على الكثير
نعرفون جميعه صالح باي، ونعرفون هدفها العلمي الثقافي الأدبي
التكويني التربوي وحتى العملي (التكويني المهني) والتضامني...
هدف مكمل باختصار شديد - للمهام التي تضطلع بها القوات
العمومية - وهي أهداف لا تتنافى تماما مع مقاصد الشريعة
الإسلامية، بل إنها متماشية معها إلى درجة أنه لا أحد يخشى ولو
قليلا من وجود شيء يחדش أية حساسية لدى أي مسلم كان.

هل تعتقدون أن البورجوازية المحلية قد شجعت الجمعية ؟ لا.
أيضا بالعكس فقد حاربوها بنشاط وشدة وحقد ونفاة لا مثيل لهم.
ولولا علو همة القائمين عليها وإراداتهم القوية، وعلى رأسهم
السيدان آريب وبين العابد لكان المشروع قد أجهض في المهد.

إننا لا نفتأ نذكر تلك المحاضرات المجيدة الجليلة والساعات
السعيدة أيام كاد بن موهوب يمثل خير تمثيل وحي الطبقة المثقفة
تتساءل الآن فعلا من أين تأتي الثورة ؟ من يطلق صوت اللعنة ؟ من
المسؤول عن تشويه النصوص الموجودة في la dépêche... اليسوا
أولئك المتطهرين ومرضى النفوس الذين رأوا كراماتهم ممسوسة،
والمساعدون في مهمتهم القدرة يتصف بزينة من "الطلبة" بلا ذمة ولا
ضمير ! أما أصل الفتنة فبسيط : أثناء الاجتماع الأول تم خدش
التقاليد والتعصب... وكان ذلك كإعلان الحرب.

وهناك سبب آخر يكمن في أن هذه الطبقة البورجوازية
المتعودة على السلام الحار وتحية الإجلال، والتي تتخذ من الكسل
وتقل الهمة علامة فائزة ونبلا أكيدا، لم تع كيف يمكن لحركة
التجديد والإنعاش أن تكون موكولة لجماعة ليسوا من أولاد
البلاد...

وستعرض لاحقا لهذا المصطلح وما يخفيه، فمعناه المباشر الشائع يخفي كثيرا عن المعاني التجنبية المضمنة.

أما فيما يخص جمعية صالح باي، فهي عاكفة - كما يعرف القريب والبعيد - على التقريب بين العنصرين اللذين أصبحا - بمشيئة العلي القدير - يسأهلان هذه البقعة من الأرض، وربما يكفي الجاحدين حجة على نبل المهمة أن السيد حاكم مدينة قسنطينة قد ترأس الجمعية شرفيا.

أوردنا هذا المثال لنبين مدى قوة عمل هذا التعصب على تشييط التفكير الاجتماعي في هذه البلاد وهو تشييط لا يأتي من بسطاء القوم - ولن نتخرج في الاعتراف بذلك - بل من أكابرهم الحريصين -

وفي ظل النظام الجمهوري الذي لا يودونه ولا يعترفون به، على مكاسب درت عليهم الكثير أيام الحكم القوضوي السائد في الفترة التركية حينما يطالب هؤلاء بالمحافظة على التقاليد الحميدة ويعلمون لا أساسا بالتقاليد عليها ألا نتخذ فتنظهم صادقين حريصين على المحافظة على النظام وعلى السير الحسن للأمر... إن ما يؤرقهم هو مصالحتهم الشخصية هل تعتقدون فعلا أن المشرقيين على المدارس وحتي على برامج تعليم الأهالي في المدارس الفرنسية، وهم أناس يؤرقهم مصلحة "الإسلام" ؟ كم

سيكون كبيرا تهافت من يعتقد بأن الإسلام هو المسؤول عن خزعبلات يهدر بها لسان شخص تملكه الجن تعرفون مدى جهل الكتلة، ومدى سهولة استغلال سذاجتها إذ يكفي أن تعلن أنك تتحدث إليهم باسم الإيمان، ولن أحيد عن الحق إذ قلت أن ثورة 70-71 ليست سوى فعل أحد الغاضبين الذين أجادوا استغلال الخطاب الديني، وهذا الصنف من الأشخاص لا يتعامل بطريقة مغيرة - بلا ريب - مع أولئك الذين يريدون تخليص الأهالي من غيبياته.

ما أن تبتغي المساس بالتقاليد البالية حتى تقوم هذه الكتلة كالعول في وجهك مستعنية بالدين كي تثني كل طائفة مهما كان حجمها، وكي تقهر عزيمة مهما كان ثباتها، وتعيق كل مبادرة مهما كان نبلها.

بربكم، قولوا لي، أكان من الممكن لمن قال : "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" أن يكون معلما للخنوع والتعصب للذين أبهى حسناقا اليوم ؟

هذا الرجل العظيم الذي يحظى بإجلال العالم كله، ألم يقم بإدانة الغيبيات والخرافات والطير منذ 14 قرنا ؟ باسم من إذن تتحدث هؤلاء المحافظون العمي ؟ هؤلاء الحراس أمام ضريح عادات

تزيدهم سوءا على خطيئة ؟ إننا لا نرفض التقاليد التي توحدنا في
السراء والضراء ، بل إننا نستحسنها في إطار ما هي حسنة.

فالعين الذي يجده من قبل أبناء جلدته ذلك الذي حلت به مصيبة
أو وفاة أو ذلك الذي يستعد لتزويج ابنه ، هو شيء حميد لا نستطيع
إلا أن نشفي عليه ، ما لا نأسف عليه بالمقابل هو أننا دوما نتخلى عن
العادات والتقاليد الحسنة الحميدة لصالح الخرافات والخزعبلات
والجهل ، وهذه الأخيرة صارت أكثر بكثير من تلك المحمودة ،
وهذه هي نفسها التي جاء السيد الكريم لمحاربتها.

إننا نعلم عسر اجتباب فيروس يتحكم من قرون طويلة في
مجتمع آيل إلى الهاوية ونعلم علم اليقين أن الزمن وحده كفيل
بتثبيت التغييرات التي نحن بصدد الدعوة لها ، ولكن ماذا يفعل
إخوتنا لعلاج الشر الذي فينا ؟ ماذا يفعلون في قرن التطور والنور
هذا ؟ ينامون هادئين هادئين مطمئنين !

أنشاء تلك الرحلة العجيبة التي قادنا أنشاءها السيد مجاوي في
دروب السحر والسحرة كان هنالك رجل يظل من وراء الباب وعبر
الفتحات الصغيرة على استعراض الرقص والجنون الذي قامت به
زوجته ، إننا نطالب هذا الزوج المغلوب على أمره أن يأخذ زوجته إلى
المسرح البلدي أو إلى قاعة الأوبرا بدلا من أخذها حيث كانت.

لا ، إننا نكتفي بأن نطالبه بالنزول القليل من العقل والمنطق ،
هذا الاحتفال السنوي الذي يقمنه كل سنة ، وهذه الأوراق المالية
التي تصرف في شرف ملك الجن أو ملك بروسيا ، لماذا لا تصرف
على تربية الأولاد أو على رحلة إلى مختلف مناطق بلاده التي لا
يعرفها جيدا ؟

هذا الذهب المبدّر هباءً ألا يمكن أن يصرف في سياقات
أخرى أكثر إفادة للفرد والجماعة وأكثر عودة بالخير على
المجتمع ؟ هؤلاء المتسولون الضعفاء الذين لا أمل لهم سوى منحة
التصدقين وهؤلاء الأطفال المنطلقون يملوهم الفرح صوب المدارس
بالشوارع بأقدام حافية ورؤوس عارية ألا يمكن أن يلقوا العون لدى
إخوانهم الذين يذهبون ليرموا قطعهم الثمينة قربانا لسلاحف سيدي
مسيدا.

تكلّموا تكلّموا يا سادتي أبناء العائلات الكبرى ، حديثا
إليكم ، ولا رغبة لنا في جرح مشاعركم ، رغبتنا كل رغبتنا
مصدرها - لو تعلمون ولو تصدقون - هو حبنا لهذا الصخرة
القديمة التي رعت سنوات طفولتنا ، لأننا نتصرف بهذا الشكل
لحرصنا عليكم حتى وإن كان ثمن هذا الحرص وهذه المحبة هو
قتلكم إيانا مع أول زيارة نقوم بها صوبكم.

هدفتنا هذا سيشرع في التحقق حينما نتمكن من جرح
مشاعركم ومشاعر الشابات وأسا، والشابات المغريبات خاصة -
لأن الشابة الأوروبية بقطعة بالقدر الكافي- ونحن لا نجهل إطلاقاً
كون الحقيقة صارمة قاسية إلا أن الخلف الصالح لسلف صالح لا
يد أن يقدر على مواجهة قساوتها : ثم أتاها لتعريفها سواء أراقم
الأمر أم لم يرقمكم.

إنكم تكرهون العمل هذا الشرط اللازم لاستمرار الحياة،
هذا الأمر الضروري القاعدي لكل كائن حي تكرهون النشاط
الذي يجعل الحياة نقية نبيلة وخصبة، هي بالنسبة إليكم عقوبة
تكرهون ربح قوت يومكم بقرقكم، إنكم إذن أعداء الجهد،
والجهد شرط الحضارة، إنكم أنانيون تأخذون دون بذل، مع
أنكم الأمة التي خطبها كتابها قائلاً : "فإذا قضيت الصلاة
فانتشروا في الأرض".

لقد حولتم هذه الديانة التي كانت عنوان الصلاح والفلاح
القوة إلى ممارسات للموت والتخلف والظلامية، وذلك بواسطة
تراخيكم وسلبتكم. احتاروا بين الحياة والموت، لا ثالث بين
الإثنين، والأمر اليوم - إن كنتم تجهلون - حرب، حرب صامتة
هائلة لا يارود ولا مدافع فيها، بل فيها الملايين.

إن كنتم ترفضون أن تصيروا أقوياء فإن عجلة التطور
ستضرمكم حرماً، لا لأنكم مسلمون - فالحرب الاقتصادية لا تفرق
بين الملل والنحل - بل لأنكم غير جديرين بالحياة، فإن كانت
هذه هي الحال التي تروقكم فسارعوا رجاءً بالاختفاء والانقراض
ولتنته من أمر "أولاد لبلاد".

دعوني أولاً أقدمكم للجمهور.

اسمكم حسب القاموس هو "أبناء المدينة" أي الذين يسكنون
المدينة...

وهي تسمية بعيدة عن الواقع، لأن من يطلع على عقلية
اليورجوازنة القسطنطينية سيجد نفسه أمام زمرة محدودة من الناس
الذين يسمح لهم باحتكار هذه التسمية زمرة محدودة في مجموعة
من العائلات، أما بقية الناس فهم عزة "شاوية" أو "قبائل".

وقد رأينا الحرب الضروس التي شنت مراراً بسبب شعور
البعض بالحيث يسبب هذا التقسيم... وكثيرون هم الذين طالبوا
بتصحيح الأوضاع من أجل نيل هذا الشرف، فتم مراراً الرجوع إلى
البحث في الأسباب "موجب الشجرة" (حسب المصطلح الشائع) أي
الحكم بموجب شجرة الأنساب) كما أن هنالك من غاد للحفر في
تاريخ ابن خلدون لتتبع أثر العائلة وتحركاتها.

باختصار، وبحكم كون الخانات كلها ملأنة، والفراغات كلها مشغولة، فقد رفضت البورجوازية الحقيقية - على ما يزعمون - تلك التي أنجست من "المرمر" حسب الصورة التي يجنون تسويقها كل المترشحين.

وبما أن الشكل دون حل إلى الآن، فإن طمعنا لن يتجاوز نقطة محاولة المصالحة الهادئة بين هذين الطرفين المتعادين، وستكتفي فيما يلي برسم صورة تقريبية لهذا "ولد البلاد"، ثم أننا نعد كل من يطمع في تعليق هذه التسمية ممن لاحظ لهم بحكم النسب، أن تسميه كذلك ولينم هائتا من جهتنا نحن، الذين لا نطلب أصلاً الدخول في هذا السياق.

"ولد البلاد" ليس فلاح "شطابة" أو "كركرة" الذي يضع برنوسا هو قطع متألفة و"القاعة" بيد والعصا بأخرى، والذي يهرب ذات برد شتاء من دواره إلى المدينة حيث تدق باب مشغل ماء ثم يستقر هنالك ليتخذ له بعد كد وعناء وجلد وأصناف من الحزمان مأوى في المدينة.

ليس "ولد البلاد" طالباً بالـ "مدرسة" يقطن بعيداً عن الدفء الأمومي، ويبعداً عن أحضان العائلة، والذي يأكل ويلبس ويقضي جميع حاجياته بأقل من 25 قرشاً (دورو) يومياً ! ولا هو بائع

القطائر ذاك الذي يعميه طوال اليوم دخان ينبعث من قرن بداتي لكي يعود آخر اليوم إلى بيته بوقير النقود، ولا هو ذلك الفتى الوسخ الذي يملأ الشوارع بصراخه المستمر "سيرى مسيو" (هل تلمع الحذاء يا سيدي؟) والذي ينام ليلاً، سواء أباردا كان الجو أم حاراً أرضاً بعد أن يكون قد أجاد إخفاء القروش السوداء التي ربما ذات يوم ستسمح له باستعادة قطعة الأرض التي استولت عليها الدولة بقانون الحجر، "ولد البلاد" ليس الطبيب الذي تعرفونه جيداً، والذي يذهب صباح كل يوم بقامته الجميلة وهيئته الجليلة صوب المرضى والمحتاجين يقيدهم بعلمه وبعلامات تكريسه نفسه للآخرين، والمرض الذي تجده بهيئة مماثلة في مهمة مماثلة يملؤه الجد والنشاط والاستماتة في خدمة الجميع، أهو من "أولاد البلاد" ؟ لا، أبداً، وذلك المحامي الموهوب، ذو الوجه اللطيف، والمظهر الضاحك والنظرة الصريحة، والقلب الأمين، ذلك المدافع الشرس عن الأرملة واليتيم المظلومين، أليس منهم ؟ لا... أولاد البلاد فئة أخرى.

هؤلاء الرجال الثلاثة ذووا المشية المهيبة والبرائيس الأنيقة، إلا ينتمون إلى الفئة المذكورة ؟ أبداً، كل من ترونهم، سواء الأنيق والرت ليسوا "أولاد البلاد".

ولد البلاد هو ذلك الشاب ذو الوجنتين الورديتين الذي تراه يخرج من الحي العربي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا، ساعة الاستيقاظ من النوم، أو ذلك المتأنق الوسيم الذي يطيل النظر صوب السماء قبل أن يطلق خطوات بطيئة صوب الحديقة جيئة وذهابا، ثم يتخذ مقعدا لبرهة من الزمان ينظر ذات اليمين وذات الشمال يحدق في كل شيء، ثم ينهض يتأهب بجلبة وينصرف بالحماس نفسه والعزيمة نفسها - وياله من حماس ثم يا لها من عزيمة ! - ليندفع شوارع سان جون أو رودي فرونس.

هناك، زاوية ما من حانة ما، بعيدا عن النظرات الملتهممة، تحده يطلب من النادل شرابه المفضل : الأبيست !

في المساء، السيناريو نفسه، مع التمهيد الجيد بنوم القيلولة وفي الليل، الأمر نفسه والموقف في الجمعية، هل تعرفون ما الجمعية ؟ إنها في العموم قاعة كبيرة موقعها مبنى يسمى "دار البربنتوط" (أو بيت العراب)، تنتشر فيها زراب ملونة تتوسطها موائد عليها مرمريات بشى الزهور وشى الزواش، وعليها أيضا مسبح بهيج اللون تغلوه حركات الأسماك الملونة البطيئة الشجية.

يجتمع أعضاء الجمعية كل مساء وسط عزف القيثارة، ولعب الأوراق، والتهام مختلف الحلويات المعسلة، إضافة إلى تدخين

الحشيش وحتى الأفيون، فيما إحدى الحوريات مكحلة العينين والتي هي عاهرة يهودية في الغالب، ترقص وتصب كؤوسا مسمومة، وفي هذه الأثناء تبحى الأمهات والزوجات فيما ينتظرن هؤلاء المتجولين المتأخرين.

أما لباس هؤلاء المتكبرين المسلمين فهو فاخر ومعقد برنوسان حريريان بأطراف ملقاة على الكتفين، شريط حريري أصفر يحيط بكثير من العناية بالخصر، وأحيانا تضاف إلى الخلة صدرية قصيرة (غليظة) تمسكها مماسك، وتزينها توشيات رائعة، ويظهر تحتها الحزام الملون ثم يأتي سروالان وثلاثة لإعطاء مرتديها انتفاخا جديرا بالطبقة.

إذا ذهبت إلى مصلحة البريد ورأيت أحد المرتدين لهذه الخلة واقفا محتارا ينظر صوبك نظرة تردد، فاعلم أن صاحبك من أولاد البلاد لأنهم عاجزون تماما عن تحرير أبسط طلب أو رسالة إدارية، ليس هذا الأمر مؤسفا، ليس عائيا ومثيبا ؟

تحضرني هنا يا سادتي من أبناء عقيدتي التعساء تلك الحادثة في المدرسة التي أشرف "الرومي" على بنائها، حاولي سنة 1909، أثناء حفل ما، أين ألقى إثنان من تلاميذ جمعية صالحي باي تحت

تلك الضمة الملوثة، ككثرتهم القاسية التي تعريكم والتي لا أتردد في
تذكيركم بها ونقلها حرفيا اليوم مثلما قد فعلت من قبل:

سيكون مخجلا لكم أيها الآباء المحبوبون، أن ترفعوا
ثرواتكم وتعملوا نحن أبناءكم وأسباب ثرائكم، نحن الأغلى من
كل الثروات، لا تعلمون أنكم تقتلوننا بأيديكم بتركنا في
ظلمات الجهل ؟ يا له من أمر غريب ! كيف تزينون بيوتكم
وتفسدون أولئك الذين سيأهلونها من بعدكم بواسطة لا مبالاةكم
وسوء تربيبتكم ؟

هلا تأملتُم هذا الخطاب الصادر عن طفل في الثانية عشرة ؟
هلا نظرتُم جيدا في ثيابه وفي أبعاده ؟ لا، اكتفيتُم بالتصفيق
لشهد طفلين غرضين يتسلمان، ضحككم بأعلى الصوت، وصفقتم
لظنكم أن الكلام مزحا ما وأنه لسلوك يشبه سلوك أولاد اليلاد
الذين يرون القيامة قائمة بعد حين دائما فلا فائدة من العمل إذن،
الآن تزدبون دائما مع رجالكم الصالحين : "إننا في هذا القرن ونهاية
العالم موشكة، ألم ترددوا مع سيدي ما نعرف" سينتهي العالم
وتقوم القيامة يوم أن تصبح الأخبار تسري عبر الجبال... وما نحن
أولاد ونحن شهود على اختراع وانتشار التيلغراف نقول علنا:

"الحقيقة معنا وليست مع المرابطين والدجالين والعالم، العالم
الحقيقي لم يبدأ إلا الآن !"

إن السيد مجاوي إذ يكتب لأجلكم لا رغبة له سوى
تويركم إنه لا يدعوكم إلى ترك أليستكم التقليدية وهجر
مساجدكم، إنه يعلم علم اليقين بأن الفرنسية المهوسة لا طائل من
ورائها، وإنه لا يمكن اختراع مجتمع جديد في عام واحد فحسب،
ما يريد آيسر من ذلك : فتح العيون جيدا، الثانوية على بعد أمتار
منكم، والمدرسة تتوسط أحياءكم والمال في جيوبكم، إن الغدر
الذي تقروه للقروي غير مقبول عندهم فحاجته هو إلى الخبر
لأولاده تفوق بكثير حاجته إلى الكتب.

إنكم أرسطقراطية، وتملكون السلاح الأقوى : المال، لا
تعاونوا إذن على ما هو حقير كالعادات البالية، والتقاليد
الموروثة... كل ذلك من صنع الإنسان وكل ما يصنعه الإنسان فيه
الطيب وفيه الخبيث، فابعدوا عنكم إذن ما يدرجكم في مدارج
الحيوانات لأن هنالك فيما وراء اللذة القاعدية، والفزوة العابرة شيئا
هاما الكرامة قرون طويلة من الانحطاط... كفى !

ها نحن في نهاية مطافنا مع كتاب رأيناها هاما على أكثر من
 صعيد فإن كنا في الإطار الضيق لجريدتنا قد آقينا أحكاما
 قاسية على طلبة معينة من مجتمعنا فإننا قد رأينا للأمور فائدة،
 وإننا لنصر في هذا المقام على أننا ونحن نتقد ببعض الشدة هذا
 المجتمع في هذه المدينة التي هي مدينتنا أكثر من أية مدينة أخرى،
 لا تفعل ذلك إلا لارتباطنا بهذا الشعب وبأهل هذه البقعة المحببة إلى
 القلب.

إن في نقد بن موهوب وهجاء مجاوي أكثر وأهدح وأقصى
 عما أورثناه بكثير، وقد فضلنا السكوت عن كثير من الأشياء
 على الأقل في اللحظة الراهنة، الأكيد أننا لم نخترع شيئا بل
 اكتفينا بالبحث في تفاصيل ظاهرة خطيرة لا بد أنها بحاجة إلى
 دراسة أكثر جدية وعمقا.

السيدة س...، سيدة شابة وطيبة يقظة الذهن خفيفة الروح،
 كانت تقول في ثانيا بعض الحديث : "إن إدمادج الأهالي والمسلمين
 عمل بطول، فلا بد من ترك الفواكه تنضج الوقت اللازم".

هذا ضعيف، إلا أننا لن نتوانى عن دعوت أبناء ديننا صوب
 تعقل أكبر لأن هنالك تقاليد لا بد من زوالها رغم رغبة الراغبين في
 بقائها، وهنالك أفكار منحطة لا بد من محاربتها بشراسة.

إن سياسة "المحافظة التامة على كل ميراث العرب الفكري
 والسلوكي" وأفكار ذلك المشبوه الذي أعلن نفسه إمبراطور
 لعرب، والذي غراه ذلك الصحفي الذي يبقى صديقا قاسيا
 وحقيقيا للعرب والأهالي لم تعد مقبولة لدينا لأن نتيجتها كما
 وصفها السيد جاك ألود هي أن "تظل عبيدا وعمالا تابعين إلى
 الأبد"، في حين يعمل النظام الفرنسي الجمهوري على التوحيد
 الحقيقي والمزج العميق بيننا وبينهم لأجل ترسيخ العنصر الموحد
 الواحد.

الفصل السابع

النخبة

في مقابلة هذه البورجوازية المحافظة الثابتة لدى أفكارها
القديمة وطبقة "العمائم القديمة" - كما تسمى - نجد النخبة
تشكل نقيضا حي من هم "النخبة" أولا ؟

إنهم ذلك الشباب الناشئ في الجامعات الفرنسية والذين
استطاعوا - بفضل عملهم - أن يرتفعوا فوق العامة، ويتموقعوا في
الجزائر الحاملين للحضارة عن جدارة، وهو نيشان لا تستطيع منحه
لكل أهالي الجزائر.

ومهما كانت تقريبيه هذا التعريف فهو كاف لحد الآن،
والواقع أن هذه المنحة محدودة جدا، والذين يشكلونها يعدون على
الأصابع، وهم أول من يعترف وإذا كان هذا الأمر مؤسفا فإننا
لسنا بصدد تحديد سعته ومداه في هذا، وكل ما نهدف إليه هو
إلقاء الضوء على مدى صحة التهم إليها وتبيان المشاعر الخفية
الواقفة خلف كل تلك التهم، والتي تخفيها الانتقادات بعنفها
وعنفها.

لقد لاموا ولا يزالون هذه النخبة وبعض وجوه اللوم الجادة
ضمتها كتاب صدر مؤخرا للسيد أسيرفي¹ حول الوطنية
الإسلامية.

"لكنهم غير راضين عن وضعيتهم الجديدة كما يقول رئيس
التحرير الممتاز لجريدة "لا بياش دي كونستانتين"، ولكونهم
عاجزين عن العمل شاكلة إخوانهم في الدين ممن هم أقل تكويناً،
ولكونهم مغرورين ببعض الشيء بسبب شعورهم بامتيازاتهم على
إخوانهم، فقد صارت عقول هؤلاء الشباب أرضية خضبة لنفوس
اصناف من الأحلام المجنونة والأفكار الخبيثة.

من جهة، لقد عمل غرورهم واعتزازهم السخيف بأنفسهم
على جعلهم غير محبين إلى قلوبنا والنتيجة أنهم نتيجة لعجزهم عن
مخالطة نحن وعن أبناء ديانتهم صاروا معزولين تماماً عن
المجتمعين كليهما، وكانت النتيجة - حيث لا يشعرون - امتلاء
نفوسهم بشعور المرارة والسخط، وصاروا يعلقون أسباب فشلهم في
تحقيق الأحلام التي هندسوا لها على أحد مشجيين : جهل "العمائم
القديمة"، أو صلافة الأوروبيين ونواياهم السيئة.

¹ A. SERVIER : Le nationalisme musulman en Egypte, en Tunisie, en Algérie.

في الواقع، هؤلاء الشباب يظلمون بلعب دور ما في شؤون
البلاد ارتكازاً. قناعتهم بأنهم بلغوا أعلى درجات الحضارة ولما يملأ
نفوسهم من الطموح. أثرت فيهم الحركة الشبانية التركية،
والشجاع الذي ككل أعمال جمعية الاتحاد والنمو وجعلهم كل ذلك
يزرون آفاقاً بعيدة.

إنهم يريدون النهوض بالإسلام من تخلفه الذي طال كثيراً
بالعمل على توحيد الاتجاه الديني والمهدي أساساً الذي يتشعبت به
أصحاب "العمائم القديمة" مع الاتجاهات المعاصرة للأجيال
الإسلامية على قواعد مستعارة الحضارة الغربية، أو على شاكلة
الشباب المصري الذي يهتف : "مصر للمصريين" فقد وصل شبابنا
نقطة التساؤل : ألا يجوز للجزائريين التساؤل حول إمكانية شغل
مساحة أوسع في دوائر الحكم وتسيير الأمور على الأقل في غياب
المطالبة بجزائر للجزائريين.

مجمل قول السيد سيرفي هو أن هذه الطبقة مشبعة بالغرور
والكبرياء وأنها تحلم بلعب دور في شؤون الحكم، وترتكز على
الأممية الإسلامية مستلهمة من جمعية إيجاد وتقدم أفكارها
وآرائها، وتحلم برمي الفرنسيين في البحر.

هذه الأفكار التي يعرضها إعلامي يقدر الجزائريون آرائه
كانت ستكون مرجحاً بها لا ريب لولا ما تفضحه من شعور عدائتي
صوب هذه النخبة، وستعمل فيما يلي على مناقشة بعض النقاط
الواردة في المقتطف السابق بهدوء وتعلل وإن كانت بلاغتها لا تبلغ
بلاغة الإعلامي الجليل في كل حي.

أول ما يتساءل حوله هو سبب وصف هذه النخبة بالكبرياء
والغرور إلا إذا أدرجنا ضمنهم هذا الجيش من "الشاوش" والكتاب
العموميين وقتيان الصيدليات الذين يمضون في نهاية يوم عمل شاق،
العضا في اليد والشاشية على الرأس للاقتعاد في أحد المقاهي
المغربية التي يتجمعون فيها لتبادل الانطباعات والتعليق على أحداث
اليوم، ذلك أنه لا يجب أن نعني بتمية "شباب الجزائر" سوى أقلية
محدودة تلقت تربية جادة هي تلك التي تنتمي إلى سلك الأطباء أو
القضاء أو التعليم أو التشريع الإسلامي.

من بين هؤلاء هل يمكننا ذكر بعضهم ممن بلغوا أعلى
درجات الحضارة؟

هل يمكننا إقامة الحجة على كونهم تملؤهم الكبرياء ؟
علام تركز الأحكام السابقة ؟ هل لو نسب ذلك أن بعضاً منهم
يقود سيارات بدلاً من السير على القدمين مثل جل البورجوازيين.

لقد أدى شعورهم بتفوقهم العقلي، فهل في الأمر إدانة ؟ لا
طبعاً بل إنه شعور ضروري أحياناً للوعي بالذات، إننا نرى من يعي
ذاته بهذا الشكل ملتزماً بكرامته الشخصية وشديد الارتباط
بواجبات طبقته الجديدة.

"الأحلام المجنونة" لا تجد أرضية لها إلا في الدماغ الناقص
للطالب نصف المتعلم الذي يصقله جو الزوايا الخاص بالخرافات
القديمة التي تتكرر باستمرار والقصاصد الحماسية التي تعج بها
تلك الأمكنة وهي أحلام لا تستطيع سكنى ذهن الإيجابي لشاب
رأى بأم عينه على خرائط أستاذ التاريخ والجغرافيا القوة السياسية
والعسكرية لفرنسا الواقع سيتغلب بسرعة على ما تلده لحظات
الغيظ من أفكار خبيثة في ذهن الشباب الجزائري.

إذا كانوا غير لطيفين مع جيرانهم - وهذه ملاحظة خطيرة،
خاصة وهي تصدر ببسط عريض على الصفحات الجادة لجريدة مثل
لاديباس دي كونستانتين - فاللوم لا يقع على النخبة ولا على
غرورها المزعوم بل يقع على الفروق الاقتصادية فحسب.

الشبان الجزائريون يصعد التحول إلى أنداد جديين - ذلك أن
هنالك تحت كل سوء فهم قضية مادية ما - وهذا أمر لا يحتاج
إلى شرح كبير.

هذه النخبة تحلم بـ "لعب دور في تسيير الأمور وشؤون الحكم". ليس هذا الأمر طبيعياً بالنسبة للإنسان يريد استغلال تكوينه الجيد ثم لماذا تكون أبنائنا إذا كنا سنحرمهم من مهمة مجتمع النيل إلى تكريم النفس.

إذا كان بعض الشباب الجزائري المتجنس والحامل للشهادات الجامعية يصرخ عالياً بسخطه نتيجة لحرماته من بعض الوظائف، اليسوا على حق ثم اليسوا أصحاب أولوية بالنسبة للمهاجرين الذين تعي بهم الجزائر ممن يشغلون هذه الوظائف ؟

ما فائدة عطفهم إذا كانوا مهمشين وسط الأمة الفرنسية التي ينهوها والتي يرثها تفضل عليهم المهاجرين ؟

لو كانت هذه التفرقة تشمل فقط أبناء الأهالي ممن حرسوا وارتقوا أدراج العلم ثم حرموا تلك الوظائف المريحة لها، الأمر، أم لا أن يحرم منها أولئك الذين قبلوا التجنس بجنسية فرنسية بسبب مولدهم وهو سبب لا يجهريه أبداً - فهذا أمراً لا من السياسة ولا من الكرم.

إن التجنس الذي أقيمت عليه كل هذه النخبة عمل شجاع لأنه يواجه إشكالية دينية. هؤلاء يجعل الشأن الديني مسألة فردية

وما يواجهونه مما نحن بصدده يثبط المتجنسين كثيراً بعد أن تشغلهم صنوف من العوائق على رأسها عائلاتهم التي تتذكر لهم.

لأجل ما سبق علينا تسيير أمورهم وتشجيع مبادراتهم الشجاعة ووقوفهم ضد تيارات قوية، وأخص بالذكر أولئك الذين تصفهم بأبناء العائلات الكبيرة.

من منا يستطيع وصف الصراع الداخلي الذي تشهده روح البعض منهم ؟ من يفككه القلق والتردد الذين ملأ نفس أغلبهم قبل أن يتخذوا القرار الذي سيحدد مصيرهم ويغير وجهة قدرتهم نهائياً ويبعدهم عن عائلاتهم الجزائرية المسلمة إلى غير ما رجوع، وأحدد صفة "الجزائرية" لأنها التهمة التي يتعرض لها المتجنسون بدءاً من التسمية التي يلصقونها بهم "لتورني".

ستجدون بلا عسر مفتين يقولون بأن التجنس خروج عن الدين، رغم أن هذا خطأ مستعدون للبرهنة عليه ذات يوم، ونحن تلامذة أحد أفضل المفتين على الإطلاق بل إننا نقر بأن هذا الأمر لو كان صحيحاً منذ مائة عام فإنه ليس صحيحاً اليوم.

إن هؤلاء الذين يرونه وعن وعي، يأتون ليرتموا بين أحضان فرنسا هم أهل لتشجيع الإدارة الفرنسية من جهة، وأهل لإكبار الجميع، من جهة أخرى، فبعد انتقاد جميع أبناء دينهم، وبعد

صنوف اللوم من عوائلهم. يجب ألا يلقوا الصدم من قبل الإدارة، أو التخوف من قبل إخوتهم الجدد ليصبحوا "على هامش الضفتين ككثيرهما" لأن هذا السلوك قد دفع سابقين إلى الندم الشديد على ما أقبلوا عليه وسيدفع اللاحقين إلى عدم الإقدام استفادة من تجارب السابقين.

هذا الشعور هو نفسه الذي وضع عليه اليد محرر لوتون Le temps السيد فيليب مبي، في مقال رائع وبمنظرة قليلة نظيرتها في العمق والتبصر: "لا توجد وضعية أكثر تأثيرا من وضعية هؤلاء الرجال الواقفين على الحد الفاصل بين عاملين".

لأقيمت مدرسا قبائلي الأصول تجنس بالجنسية الفرنسية وتزوج بفرنسية النموذج نادر، ولهذه القدرة سبب وجيه: "لم أجزؤ على العودة إلى بلدي، لم يرحبوا بي أبدا، فقد مات أبي دون العفو عني" ¹ ... لم يعبر الأستاذ عن أسفه، ولا يسمح له عقله ومنطقه أن يندم على ما فعله، إلا أن شعورا دفيناً بالألم سببه العزلة كان هنا ليدفعه إلى الرغبة في مفارقة الجزائر وإننا نعي جيدا أن كثيرا من الناس يجنبون أنفسهم هذا الشعور وهذا الموقف البطولي.

¹ - يبدو لي هذا الاعتراف مثاقفا فيه.

سيطالب أبنائي إن كانوا، بالجنسية الفرنسية - قال لي أحد الأهالي من أبناء ربيعة جدا - أما أنا فلا أستطيع الإقدام على ذلك، سأقتل أبي بفعلي تلك ! وهذا الموقف شبيه عندي بأولئك الأوربيين الأحرار الذين يعمدون أبناءهم لا شيء سوى لتجنب النقاش والألم لأناس قريبين من قلوبهم ¹

ثم إنه لا مجال للتقول حول برنامج الشباب الجزائري فقد تم تعديله مرارا وآخر تعديل له قد تم مؤخرا فقط، فقد قدم الدكتور المحترم : بن ثامي، في باريس رفقة بعض الزملاء مذكرة تحمل رؤيتهم وتحوي مجموعة من المطالب التي تسمح لنا بفهم فكرهم وتقييمه.

إن المطلع على المذكرة سيكون بلا شك على بينة من مستواهم وسيجد قبالاته نقطتين حاسمتين توضحان سلوك هذا الشباب الجزائري:

الأولى هي الارتباط الوثيق لهؤلاء الشباب المسلمين الجزائريين بفرنسا، ويمكن للإدارة الفرنسية أن تطمئن على سيرورة الأمور بعد طول قلق مبرر بلا شك.

والنقطة الثانية هي عدم اهتمامهم بالدموية التي طالما
أخافت الفرنسيين الراغبين في المحافظة على غلبة العنصر الفرنسي
في الجزائر والتي مفادها حصول الأهالي على حقوق المواطن
الفرنسي لا يطالب بها هؤلاء أصلا حتى لفائدة النخبة.
وقد يغتلبنا في هذا المقام نشر هذه المذكرة عن كل إضافة.

مذكرة

حول التدابير التي يطالب بها

المسلمون الفرنسيون في الجزائر

كتعويض عن التجنيد العسكري

إن الظروف التي تم فيها التجنيد العسكري بتاريخ 13 فيفري 1912- قد ولدت شعورا بالاستياء لدى كل الجزائريين، وهو شعور من شأنه أن يتطور إلى ما هو أخطر إن لم يتم توضيح الأمور جليا.

إزاء هذا الوضع، رأى الأعيان الممضون أسفله، والذين هم الممثلون الأفاضل لجماهير من الأهالي، أن يتوجهوا إلى حكومة العاصمة لتوضيح الوضع المتمثل في شعور الأهالي بأن هذا الحمل الذي جاء يعضد أحمالا ثقيلة سابقة، لا بد أن يوازيه شيء من التخفيف عن كاهلهم.

هؤلاء الممثلون، والذين استوحوا آرائهم من الطلبات الكتابية الكثيرة الصادرة من المقاطعات الثلاثة للجزائر، والمقتنعون بأنه على أبناء فرنسا أن يجيبوا ندائها دائما، هؤلاء السادة يعلنون أن أهالي الجزائر مستعدون تمام الاستعداد لأداء كل واجباتهم إزاء الوطن الأم.

أولاً: نظام العقوبات

الأهالي يخضعون في حالات الجنح والجنایات لقانون استثنائي يبتعد كثيراً عن القانون العام، من ذلك أن وضعية "الأهلية" تستحدث قوانين خاصة وعقوبات خاصة لا يتم تطبيقها في المحاكم بل من قبل أعوان الإدارة فقط، وهذا خرق صريح لمبدأ التفريق بين السلطات.

من جهة أخرى يتم الاحتكام لمجالس الردع - كما تسمى - التي لا تحترم أية قاعدة من الإجراءات القانونية المعروفة.

لنذكر بأن هذه القوانين لا تعود إلى مرحلة الاحتياج وإنما تعود إلى تواريخ قريبة هي 1881 ثم 1903.

أحد أغرب الأشياء هو ما يسمى الحبس الإداري، وهو حبس لا يخضع لأي نص ولا يتركز على أية قاعدة قانونية رغم تطبيقه الشائع جداً؛ إذ يكفي أمر من الحاكم لكي يجتث الشخص من وسط عائلته وأعماله ليحبس دون شرح ولا دفاع ولا تفسير، فيوضع في حبس خاص لمدة غير محددة، وربما يتم ترحيله إلى مكان بعيد جداً عن بيته عمله وإخضاعه لإقامة جبرية.

إن أهالي الجزائر يطالبون بتغيير جذري لهذا الوضع.

إلا أنهم يدعون ضرورة ما يلي:

1- تقليص مدة الخدمة الوطنية إلى سنتين مثلما هي حال المجندين الفرنسيين.

ب- الاستدعاء في سن 23 بدلاً من 18 سنة لعدم استعداد الشباب المدني في تلك السن.

ج- إلغاء المنحة لأن العائلات ستكون فخورة بأبنائها وهم يخدمون في صفوف الجيش الفرنسي دون تعويض مالي.

وطالبون بالموازاة - بالتعويضات الفعلية التالية :

1- إصلاح نظام العقوبات.

2- تمثيل جاد وكاف في المجالس هنا في الجزائر وكذلك في العاصمة.

3- المساواة في نظام الجباية والضرائب.

4- التوزيع العادل للموارد بين مختلف عناصر الشعب.

الجزائري

ثانيا : تمثيل الأهالي

هناك مشاكل في الجزائر يفترض للأهالي أن يكونوا ممثلين في صلبها، يمكن في المجالس البلدية مثلا أن يكون لهم ربع المقاعد دون أن يتجاوز الحد الأقصى ستة مقاعد.

في المجالس العامة، عدد المقاعد لا يتغير أبدا ستة مقاعد.

في البلديات المالية، أين يكون العدد الإجمالي 69 عضوا يشمل الأهالي 21 مقعدا 15 منتخبين، و6 بعينهم الحاكم العام من العساكر.

في المجلس العام وأعضاؤه 59 عضوا، يوجد 7 أهالي، 4 من صلب المندوبيات المالية و3 بعينهم الحاكم العام من العساكر.

واضح جدا أنه لا تمثيل حاد أو مجد للأهالي في المجالس المحلية، عددهم المحدود يجعلهم في كل مكان دون فائدة وعاجزين عن لعب دور التمثيل الحقيقي.

ثم إنهم لا ينتخبون لا شيخ بلدية ولا نائب له، ولا يلعبون في النهاية أي دور في التوجيه الإداري للبلدية.

أما تعيينهم فيخضع لهيئة محدودة جدا تمنع كل هامش للحرية، إن الهيئة الانتخابية تحوي:

1- بالنسبة للمجالس المحلية : الموظفين، المتقاعدين، الملاك، المزارعين، حاملي الوسام الشرفي، أو الميدالية التذكارية. ويستبعد التجار، الصناع والذين يشغلون المهن الحرة، المحامون، الأطباء وأرباب التجارة ليسوا ناهين.

2- بالنسبة للمجالس العامة لا تشكل الهيئة من : المنتمون إلى المجالس المحلية من الأهالي والأعوان الأهالي، وبسبب تبعيتهم للإدارة "الولاية" وبسبب كونهم يشكلون الأغلبية دائما، فإن المنتخب هو دائما منتخب الإدارة، وهذا ما يجعل تمثيلهم صوريا لا معنى له، فهم لا يمثلون إلا الإدارة التي يشتغلون تحت إمرتها، تلك هي حال تمثيل الأهالي.

لهذا فالأهالي يطالبون بما يلي :

1- توسيع الهيئة الانتخابية لضمان تمثيل فعلي ونزيه أثناء الانتخاب.

2- رفع عدد الممثلين الأهالي في كل المجالس إلى خمسي المقاعد على الأقل.

3- توحيد تشكيل الهيئة الانتخابية بالشكل نفسه في الجزائر كلها، فإذا تم اللجوء إلى دوره انتخابية ثانية لتعيين أعضاء

رابعاً : توزيع الموارد المالية

إن المستعمرة الفرنسية هي الوحيدة المستولية على الموارد المالية بفضل التمثيل الحقيقي الذي تحظى به وفي حين يتمتع العنصر الأوروبي بخيرات هذه الأرض، تجد الحاجات الأكثر إلحاحاً للأهالي عسراً كبيراً لكي تُقضى.

ونرى جلياً كيف أنه يتم تبديد كيف أنه يتم تبديد أموال كبيرة، في بلديات كثيرة على أمور ومشاريع لا فائدة تخرج منها، في حين لا يحظى الجزائري سوى بالأعمال الشاقة.

إنه لوضع مغيظ إذا ما فكرنا جيداً فرائنا أن أغلب الموارد مصدرها الضرائب التي يدفعها الأهالي، ولهذا يوضع أمل كبير على خلق تمثيل حقيقي للأهالي في أجهزة الدولة للعمل على تصحيح الوضعيات.

هذه المطالب التي يقدمها ممثلوا الأهالي وكلهم ثقة في عدالة الحكومة والجمهورية والتي نعلم أنها لن تدخر جهداً لخدمة الصالح العام، الفرنسي والجزائري معاً.

تلك هي الإصلاحات التي تنادي بها هذه النخبة، إننا لا نوافق كل ما ورد فيها، وبما أن جل من شارك في تحريرها من

المجائس العامة والمندوبين الماليين، يجب ألا يكون الحق في الانتخاب متاحاً سوى للمنتخبين المحليين باستثناء الأعوان الأهالي.

4- إن يحق للمنتخبين المحليين أن يشاركوا في انتخاب شيخ البلدية ونوابه.

5- إبعاد إمكانية الانتخاب عن وظائف مثل "القايد" والعون الأهلي.

6- تمثيل الأهالي في البرلمان الفرنسي، أو استحداث هيئة عليا في باريس يتم تمثيل مسلمي الجزائر فيها من قبل منتخبين يتم انتخابهم من قبل الأهالي أنفسهم.

7- أن يسمح لمن أدى الخدمة الوطنية أن يحصل على درجة مواطن فرنسي بطلب بسيط ودون إخضاعه للشكليات المعقدة المنتشرة حالياً.

ثالثاً : توزيع الضرائب

لا بد من تصحيح المنظومة كلياً مع الارتكاز على مبدأ المساواة في توزيع الأثقال.

المبعضين فإتينا سنبدى لهم آراءنا في الوقت المناسب على الصحفية المناسبة.

ولكن، وبعد معاينة هذه النقاط الواحدة تلو الأخرى، هل تصبح فعلا نزعة إسلامية ما؟ سواء جهرا أو سرا ؟ ...

هل يوصف بالإسلامي من يقبل بحمل السلاح في الصفوف الفرنسية ؟ إنه تصور غريب للإسلامية !

الأدهى والأمر من كل شيء هو أن هذه التهم السطحية الجائرة قد ولدت ردود فعل ومواقف مؤسفة، وأوجدت جوا مكفمها نخشى كثيرا ما يمكن أن يترتب عنه.

هذه النخبة المتحركة، والتي توصف بالنزعة الإسلامية والوطنية هي في معظمها شباب نال تكوينا عاليا في المدارس الفرنسية، وأغلبهم لا صلة له إلا بالفرنسيين أصلا، كثيرون يعيشون على الطريقة الفرنسية، وليسوا قليلين من تزوجوا أصلا بفرنسيات، والأغلبية الساحقة منهم قد قلصوا ممارستهم للدين إلى الحد الأدنى الذي هو النطق بالأمر... أن يجوز مع ذلك وصفهم بالنزعة الإسلامي؟

قليل من النطق أرجوكم !

أعتقد أن هنالك نزعة من قبل بعض الكتاب أصحاب الخيال الخصب هدفها تكرار رسم صورة مازد "الإسلامية" إلى حد إيهام المتسرعين بوجوده حقا.

إنه لمن الغريب أن هذا المصطلح لم يكن معروفا أصلا في الجزائر منذ ثلاثين سنة -حسبما ينقله اليهود- في حين نجد اليوم منتشرا تنتدر به الأفواه الأكثر سذاجة أن يشتد أحد الطلبة الثانويين في اللجاجة على صاحبه حتى يرميه هذا الأخير بكل سخرية قاشلا : "جذع شجرة صار إسلاميا".

أنعني بالإسلامية ذلك الشعور بالملاطفة الذي يملأ صدر بدوي "سطيف" إزاء أخيه المسلم بالمدينة المنورة ؟

إذا كان الجواب : نعم، فإتينا لا نرى في ذلك غرابة، وأي شيء أكثر منطقية من شعورنا بالقرب ممن يشاركنا العقيدة والأحلام والمخاوف والتاريخ والطقوس والأخلاق، خاصة إذا كان هذا الشخص بعيدا لا يتعارض وجوده مع وجودنا في أي شيء.

أليست هذه الحال هي نفسها لدى جميع اليهود وجميع المسيحيين ؟

أما مسألة القرب بين الشباب الجزائري وبين جمعية اتحاد وتقدم الإسطنبولية فلا دليل عليها.

إن التبرعات التي قام بها الصليب الأحمر لفائدة جرحى الحرب الإيطالية التركية في طرابلس هي مبادرة من مجموعة من رجال الدين القسطنطينيين، من بينهم إثنان يحملان وسام الشرف، وليست مبادرة الشباب الجزائري. فإذا كانوا قد اضطلعوا بالأمر فيما بعد فما ذلك إلا للتقرب من المبادرين الذين أرادوا خدمة عملهم الخيري مستعينين بالصحافة الأهلية.

ما نأسف له هو أن الجرحى الإيطاليين لم يستفيدوا من هذه المنح المالية، وإلا لكان ذلك درسا رائعا في السماحة والتسامح، حتى وإن كانت ستواجههم رياح التعصب لدى الجموع، إلا أنهم كانوا سينالون شرف المبادرة !

إن "العمائم القديمة" نفسها تحظى لدى الصحافة الأوروبية المفرضة بكثير من الانتقاد "إنهم - كما يقول السيد سيرفي - أناس شديد الارتباط بالدين الإسلامي¹ وخاضعون للتعاليم المهدية² " ثم يعلمنا، بعد ذلك بصفحات بأن "الإسلام محافظ شرس، وأنه كان التعصب داء عضالا فإن التعصب الإسلامي

تحيديا لا أمل يرجى منه، وأن الإسلام غير متلائم مع الحضارة لأنه جوهريا ضد كل أشكال التقدم"¹

ما المقصود إذن ؟ أن "العمائم القديمة" لا يفعلون سوى خداع فرنسا بإظهار مظهر مسالم، وأنهم لا يفعلون سوى ممارسة "التقية"² بإظهار الرضا وإبطان السخط لعجزهم عن الحركة، وأن هذنتهم مؤقتة فحسب وأنهم يتربصون بالمسيحية في انتظار ظهور نزعة أممية إسلامية ما.

إننا نعارض هذا الكلام معارضة جذرية، إضافة إلى كونه كلاما قديما بعض الشيء لأن السيد سيرفي نفسه، ومنذ أسبوع فقط، نشر على صفحات تعابير المدح وأكثرها بلاغة، تلك البلاغة التي يملك ناصيتها إلى درجة تخليتها في كل مرة.

إلا أن هذه البلاغة تعجز كثيرا في تفسير الهوة الكائنة بين ما كان يقوله في حق الشيوخ منذ عام ونيف وبين ما يقوله اليوم :

"إن برنامجهم يتلخص فيما يلي :

1- الوفاء للدين الإسلامي.

2- الوفاء لفرنسا.

1- A. Servier : Nationalisme musulman, p132.

2- ID, p 190.

إبه نفسه السيد سبرفي الذي يرى المسلمين عاجزين عن كل تعامل مع المسيحيين ويرى الإسلام غير متلائم مع التقدم، وهو رأي خاطئ أو على الأقل محل للجدل المثير للسخرية هو أن الرجال الذين يمدحهم اليوم ويصادق على برنامجهم، هم قلة أكثر شيء يميزها تدبها الشديد، فالعبارة الافتتاحية لبرنامجهم الجدير حقا بكل احترام وتقدير هي أنهم يريدون وينوون احترام الشريعة الإسلامية.

الاستنتاج الذي يفرض نفسه هو أنهم لا يمكنهم بأي شكل من الأشكال أن يكونوا أصدقاء التقدم ولا أصدقاء لفرنسا.

هذا ما يجره كلام السيد سبرفي، حلل وناقش !

لن نطيل أكثر مع موضوع "الإسلامية" الذي لا جدوى منه هذا وسنحتم بكلمة نصيحة قالها أحد المتأدبين المسلمين (المستشار السابق لمنطقة تلمسان) في وجه متحرّج جاء للبحث والتفتيش في الشأن الأهلي:

"لا نزعمة إسلامية ولا وطنية في الجزائر، قال السيد بن رحال، فإن كان موجودا فلا بد أن سيادتكم هي التي اخترعته"، ونضيف أنه على الضفة الأخرى مثلما يقال، أي ضفة "العمائم العجوز"، الذين

هم أناسا مسالمون وعمليون¹، سيجمع هذا الجيش الرهيب قيادته لأنه لا يجب أن نشي بأن الانتظار الهادئ لا يعني الاستكانة.

من المناسب، لختام هذا النقاش، أن نبين ثانية المشاعر الحقيقية لمسلمي الجزائر إزاء فرنسا، وهو ما تعكسه بلغة رائعة رسالة السيد مختار حاج سعيد أحد الشباب الجزائريين اللامعين هي ذي الرسالة :

السيد رئيس تحرير لا ديباش ذي كوتسطلانتين

إن من تسمونهم في ورقتكم بتاريخ 20 جانفي "العمائم الشابة" أو "الأتراك الشباب" أناس لا علم لنا بهم. أما نحن فإننا ببساطة شباب فرنسي مسلم ولا نريد غير ذلك، لهذا فلا حاجة لنا للإعلان بأن عدو وطننا هو عدونا اللدود مهما كانت جنسيته وديانته وأعتقد في هذا السياق أن حملة المغرب الأخيرة كانت فصيحة في هذا الشأن إذا كان السيد باش حمّيه يقود في تركيا حملة ضد فرنسا، وهو أمر دون يقين، لأن قبول منصب في القضاء ثماني لا يعني بالضرورة الخيانة أو التواي العدوانيّة إزاء بلادنا، فإن تيقن الأمر فإننا لن نتوانى لا عن نكرايه فحسب فهو لا شيء في حسابنا بل عن عدة عدو لنا.

بالنسبة لي شخصيا أي السيد باش حمّيه صديقا ومعجبا
لفرسا إعجابا شديدا، قد يكون قد تغير، والتغيير من ديدن
الساسة، إلا أنني أقر بأن السيد باش حمّيه الذي أعرفه شخصيا
ليس منافقا ولا مراثيا بل إن خطيئته الوحيدة هي صراحته
الكبرى.

ثم إنه لا يجب نسيان أن السيد باش حمّيه ليس مواطنا
فرنسيا مثلنا بل تونسي أصوله تركية، إنه إذن أجنبي تحت حماية
فرنسية.

ومهما كان فإننا نكرر بأنه إن عادى بلادنا عادينا أشد
عداء فبلادنا واحدة ما لنا غيرها، أما إسطنبول والخليفة بالنسبة
لنا نحن المسلمين فهما مثل روما والبابا بالنسبة للمسيحيين، لا غير.
ومجمل القول أنه فيما عدا شيء من الملاطفة مصدرها
الديانة المشتركة فإنه لا يجمعنا شيء مع الأتراك والفرس
والمصريين أما بالنسبة لادعاءات القرابة مع جماعة "اتحاد وتقدم"
وادعاءات النزعة الإسلامية فإننا نعلن ونقر بأنها لا توجد إلا في
مخيلة بعض خصوم السياسيين وأحسن ما نجيب به هذه الادعاءات
هو التساؤل حول الفائدة المرجوة من قرابة ممكنة بين إسطنبول
والشباب الجزائري.

لقد كان لنا سلوك نبيل منذ سنتين حينما اضطلعنا بالتبرعات
لفائدة جرحى حرب طرابلس ولسنا أسفين، بل فخورين إلا أنه قد تم
تنظيم نفس الأمر في فرنسا قبل أن نفعل ثم إن الأمر قد تم بموافقة
من السلطات فلا نقاش حول هذا الموضوع بعد هذا.

هذه سيدي بعض الشروح الواضحة القاطعة.

إن هذا الرد لا يحمل إلا إمضاء واحدا هو إمضائي إلا أنه
يعكس بالتأكيد فكر وجد أن كل الأصدقاء الذين يضعون
الطربوش أو القبعة أو العمة دون تمييز فكل واحد حر في اختيار
غطاء لرأسه وتضيف كلمة إن سمحتم إنكم إذ تكتبون بأننا
نطالب للمسلمين بالحقوق التي يقر بها الدستور لكل مواطن
فرنسي تخطئون، ربما دون قصد إلا أنكم تخطئون كثيرا لأننا لم
ولن نفعل والباب لمن يريد أن يحلم بذلك.

ما طالبنا به هو مجموعة من الاصطلاحات هدفها تحسين
وضعنا الاجتماعي، إن آمالنا ومطالبنا شرعية في عيون الجميع
والدليل أن السيد الحاكم العام قد أصدر أمرا ثم مرسوما مؤخرا،
ينتصر لما رأيناه.

اقرأوا سيدي أو أعيدوا قراءة الورقة التي سلمت في جوان
1912 لرئيس الحكومة من قبل الوفد المسلم إلى باريس وسيوضح

كل منهم حول نوابنا. أملي كبير في سعة صدوركم كي تنشروا ردي، إنني سيدي خصم سياسي لأنني أعارض آراءكم لأنني أي حملتكم في لا ديباش دي كونسطنطين ظالمة وباعثة على الحقد والفرقة بين الأوروبيين والأهالي، العنصريين الذين لهما كل ما يجمعهما ويذهلها للعيش في سلام والعمل يدا في يد لأجل خير البلاد وعظمة الوطن. إلا أنني أعدكم دوما خصما أميناً وإعلامياً موهوباً.

فإن حدث وجرحنا التطلبات السياسية صوب أرضية للتصالح والاتفاق سيكون أول من يمد صوبكم يدا أخوية.

تحياتي واحتراماتي كلها.

مختار حاج سعيد

محامي

إن الشباب الجزائري مثله مثل إخواته الكبار فرنسيون طيبون : فإذا تحرك هؤلاء ولبت أولئك صافتين فلا يجب قراءة الأمر على أنه معارضة وتضاد، فكلهم قدموا لفرنسا علامات الولاء، ومضى ما حلى بينهم سوء الفهم وعلو التبر، لا بد من فهم ذلك كعلامة على مجيء زمن جديد، فالنقاش الوسيلة المثلى للتقريب بين الطرفين الذين تظهر الفرقة بينهما.

إن رجلين يتناقشان هما رجلان في الطريق صوب التفاهم. لهذا نأمل أن يدخل كل العناصر الجزائريين في النقاش للبحث في الأمور والجدالات العالقة، وتبيان مواقع الخلاف، ومواصلة المهمة التي بدئ في تحقيقها تحت الألوان الثلاثة للعلم.

ستصير مهمة كل شخص أخف وأيسر وتكون ثمار العمل الجماعي أفضل آنذاك وهذه هي الأفكار التي نتمنى أن يعرضها ويدعو لها إعلاميون من قبيل السدي سيرفيبي: آنذاك نكون إزاء فتح لسيل "دوبان ليس فقط ممكناً بل إنه ضروري".¹

من أجل هذا، لا بد على الشباب الجزائري أن يعمل بحذر وهدوء، فإذا كنا نقر بوفائهم فإننا نرفض العنف الكبير الذي يطبع جل كتاباتهم، وحتى إذ صح أن المحررين الأصليين لهذه

(1) Bourdieu : La question indigène.

الكتابات هم فرنسيون من المعارضة يخفون أسماءهم فإن ذلك بلا أهمية في ظل نشر هذه الأوراق على صفحات جرائدهم. نضيف إلى ذلك الهجومات الشخصية الكثيرة التي تتخذ لها من هذه الصحف مسرحاً، وهو أمر يشين ما زانه نبل قضيتهم.

من جهة ثالثة، نلاحظ نشره هذه الصحف للأخبار والتفاصيل المثيرة والفضائح بعيداً عن روح التحري والصدق، ودون تقدير للعواقب. لذلك فإن الحاجة ماسة لجهاز رقابة قوي يمنع عنها ما صار لصيقاً بها من خفة والسباب السافل.

أسوق مثالا فصيحا حول ما أتحدث عنه يتمثل في كوني منذ أشهر في قاعة الانتظار المكتظة لدى طبيب معالج، وكان من بين الحضور شابان من الشباب الجزائري وعلى صفحة إحدى الأوراق الموضوعية على الطاولة ويخط اليد قرأت: "عين مفقودة أخرى".

تذكرت حالا واقعة مفادها أن أحدهم مسيري البلديات المختلطة قد فقأ عين أحد أعوانه بضرية سوط منذ أشهر كما نقلت جريدة لوطون Le temps وكان هرج كبير قد ثار، واتسع الجدل بعدما أدان الأمر محام جزائري ولم تتضح فحوى الحادثة إلى اليوم، لا من قبل الاتهام ولا الدفاع.

نسيت آنذاك الألم الذي جرتني إلى ذلك المكان واستدرجني الفضول إلى طلب تفاصيل أكثر من الجالس إلى جانبي الذي توقعت أنه ليس مستبعدا أن يكون كاتب تلك الكلمات، ولم يخب توقعي، قال:

"الأمر وما فيه أن أحد الأهالي، في أوائل هذا الصباح، تلقى ضربة من ذراع بندقية على أم وجهه، ويبدو أن الفاعل هو أحد المعمرين" وواصل بكل حماس "إنني محرر في الجريدة، كما تعلم، ... وقد جئت إلى هنا للفحص، كما تعلم، إلا أنني لاقيت بالصدفة الرجل المضروب وهو في حال مزرية، وسيتم حالا إدخاله إلى الاستعجالات، لهذا جاءتني حالا فكرة كتابة مقالة حول الحادثة... وبما أن الجريدة لن تصدر إلا غدا فإنني أنتظر خروج الجريح لأحصل على تفاصيل أوسع.

- ضرب دون سبب ؟

- دون أدنى سبب !

صعقني ذلك الكلام فتركت القاعة وداهمت الطبيب لطلب الإذن بالحديث إلى الضحية المزعومة، كان الرجل عميق الجروح، وكانت عينه اليسرى في حالة خطيرة جدا وأجوبته خبرتني بأنه من منطقة جيجل، وأتبعته معه طريقة مألوفة هي الهجوم مع النفي.

أخبرني بالحقائق وأسأسأعدك، إنني لا أصدق بأنه تم الاعتداء دون مبرر منطقي، أنا أعرفك وأعرف أصولك وما أن أعرف هويتي ومكانتي حتى قبل يدي وأعترف بجرمه وتوسل إلي كي لا أخبر أحدا.

الواقع أنه هو في طريقه إلى عمله دفعه الجوع أو لست أدري أي شعور شبيه إلى مد يده إلى ثمار الخوخ ببستان رآه وكان مجبرا للوصول إليه أن يقطع أرض البستان المجاور، وما كان من الحارس متيقظا إلا أن عاقب اللص المتسرب فكان عقابه أشد مما يطاق.

إنني لا أوافق ما فعله الحارس الأجنبي، وكل ظني أن العقاب لم يكن من جنس العمل، إلا أن الحقيقة هي ما عليه، والواقع أن هذه الخطيئة التي يبدو أن طرفيها هما ما رأينا قد صار لديها طرف ثالث كاد يجر العدالة صوب منزلق ما : إنه الصحفي والخفة التي يباشر عمله بها.

النقطة الأخيرة التي لا بد من الوقوف عندها هي لجوء صحافة الشباب الجزائري الكثيف للإمضاءات المجهولة، وأخلاقيات المهنة توجب عليهم التعود على التحلي بالشجاعة لمواجهة وتحمل تبعات آرائهم وإلا فالصمت.

ثم إنه على هذه الصحافة أن تقلل من التحامل على الإدارة التي تؤكد أن جل خدامها تحركهم أحسن التوايا في عملهم وفي تعاملهم مع الأهالي.

أن يطالب الشباب الجزائري بتمثيل فعلي وواسع في المجالس وفي صلب الهيئات المنتخبة من أجل إيصال صوتهم، ذلك أمر لا ينكره عليهم أحد، بل إن الإدارة نفسها في أتم الاستماع لهذا الصوت الذي يقول الحق، وأنا موقن بأن إصلاحات قريبة ستظهر إلى الوجود في أقرب وقت.

أن يجتهدوا لأخذ مكان مسؤولين كبار في السن، أصبحوا عاجزين عن القيام بدورهم بالحيوية الكافية، أو مكان "غير المؤهلين"، ذلك أيضا أمر مقبول لا غبار عليه، بل أكثر من ذلك إنها سنة الحياة التي لا اعتراض عليها.

أما أن يوجه النقد المتهجم اللاذع لكل المسؤولين وكل الموظفين وممثلي الأهالي، وكل الأعيان المسلمين الذين عملوا بجهد على الإصلاح والمصالحة بين الأطراف المتناهية، ووصفهم بالطماعين الجشعين المقتاتين من موائد الأسياد ومصاصي دماء البسطاء والعائشين في المياه العكرة... ذلك هو ما لا نقبله بتاتا ولا

أحد سياسات هذه الصحافة من أجل شتم أولئك الذين لم يفعلوا
شيئا يستأهلون السباب لأجله.

صديقوني أيها الشباب الجزائريون، إنكم ستريحون أكثر
وتتلقون أفضل لو عوضتم الشكوى والصراخ والأتين بالعمل على
تزع الصدق من التهمة التي ألصقت بكم والتي ترى فيكم
النقص، القصور، الخسائر والأدغاء.

خلاصة

ها نحن قد عاينا المهام التي قامت بها الإدارة الفرنسية
للتقريب بين عنصرى هذا البلد واحدة واحدة، قرأينا ما يعانیه
الفلاح البسيط في وضعه البدائي، كما ألقينا ضوءا كاشفا على
أغوار نفوس نوجوازيينا، وكلنا أمل ورغبة في تبديد ضباب
الظنون والأحكام المسبقة والأنظار الجاهزة، وانتهينا بالنظر
الموضوعي التحليلي المقيم والمقوم صوب هذا الجيل الصاعد
المسمى: النخبة.

لا بد أن كثيرا من الخطل والتهافت قد تسربا إلى هذه
الصفحات إلا أننا نصر على ما هو أهم : النية الحسنة والقلب
الصريح اللذان يقفان خلف هذه الآراء.

لقد ناقشنا وأبدينا الرأي في الأمور دون أي إيعاز من أية جهة
ولا محرك لنا في مشروعنا كله سوى العناد الذي يصبغ البعض
والذي دفعنا إلى إضافة معزوفة إلى الكونسرتو الجزائري.

إن مختلف الآراء الصادرة عن مختلف الشرائح المعنية
بالمشاكل شمال إفريقيا تهما بدرجة كبيرة، لهذا حرصنا على
عرضها كلها، على تباين أصحابها بين شهير ومغمور، قبل إبداء
آرائنا، وللتذكير دائما أن المشاكل المذكورة واسعة المدى،
شائكة وشديدة الحساسية.

تطور أعمال المساندة والتعاونيات إصلاح نظام "الخماسة"،
والنظام الجبائي أو نظام العقوبات، التعليم، القيادة، تيسير أحوال
الزراعة خاصة، كلها من المشاكل الواجب ذكرها وإيرادها في
الإطار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

إن لبرنامج التعمير الذي تسهر الإدارة عليه شيء من عدم
الاكتراث هو عمل شاسع واسع معقد كثير التفاصيل، لهذا فهو
أقل لدراسة من قبيل ما فعلناه.

لذا علينا العمل بالمراحل وتقبل النتائج بثقة ورباطة جأش،
وأيس على طريقة ذلك الفلاح الذي سئل منذ مدة عن رأيه فيما آلت
إليه الأمور فقال إنه يتمثل الحال على أنها "كارثة وطنية" إن تحجر
التعصب والنقص الجوهرى للأهالي هما مقولتان أكل الجهر
عليهما وشرب.

ولا بد من الإقرار بالدور التويري الذي كان للحضارة
الإسلامية على هذه البقعة من الأرض، فإذا لاحظ البعض تحلف
أهل هذه الأرض الحالي بالنسبة لخيرانهم فلا بد أن يتذكر دائما
ما لماضي هؤلاء من أمجاد تنطق بالعلم والفن والأدب والذوق
والتأنق.

إن بربر الجزائر ليسوا أسوأ ولا أفضل من إخوانهم الأفارقة،
والأمر كل الأمر يكمن في جهازهم صوب الإيمان بالقلب
والتصديق بالعقل بمدى جمال وعظمة المشروع الفرنسي على هذه
الأرض إذا اقتيدوا بيد حازمة ولكن طيبة محبة، وجذبوا من قبل
روائع حضارة لامعة ومن طرف "مغناطيس المصلحة" أيضا.

فإنهم سينقادوا صوب المأوى الفرنسي الذي سيشعرون بالعزلة
خارجه، سيلجونه بثقة وسلام، يقتاتون من عبقريته الخالصة،
ويتدفنون بناره الحية ويعيشون بتقاليده الثيلة ومبادئه السامية.

آنذاك سنكون بضد تنويع قرون من الاجتهاد والعمل
والإصرار، وسيكون الرابع الأكبر هو أمة لها ثقة دائمة في
أبنائها، فضلها الأكبر يكمن في حملها إلى كل مكان وكل
زمان الأعلام الباهرة للحضارة.

الجزء الثاني

الحرب ضد الجهل

خطب ومحاضرات ألقاها نادي صالح باي

الأستاذ محمد المولود بن موهوب

أستاذ الفقه الإسلامي في المدرسة، والمفتي

المالكي لمدينة قسنطينة، حامل وسام الشرف

(مقتطفات)

الأهالي والحضارة

خطبة أقيمت بمناسبة قدشين المدرسة

سأدتى،

لست من أولئك الخطباء الذين يملكون ناصية الكلام معبرون بإعجاز عن زمرة واسعة من الأفكار، بل إنني في شيء من الحرج بسبب حضور هذه الثلة المباركة اللامعة وحدها طيبتكم وورصانة وجوهكم ونظراتها يجعلان أمل أن يمتد بساط رحمتكم تحت خطواتي غير الثابتة.

إن قدشين هذه المدرسة الجلية يمثل بالنسبة لكل واحد منا حدثاً من أهم ما يكون، والنتائج المرجوة من تجمعات كهذه لا تخفى على أحد، إننا إخوة والإنسانية تأمرنا بالتعاون وبجعل الصالح العام فوق كل اهتماماتنا.

تلك هي الوسيلة المضمونة لتحقيق المساواة الحقيقية، التي
هي المثلة المثلّي لظهور حرية الفكر.
الإنسانية ١ يا لها من كلمة رائعة ويا لها من هدية قلّ من
تقديرها حق قدرها، ولكنها كافية إذا سكنت قبل امرئ واحد
كفي تحيله أمة كاملة.

المثال الإنساني

يميز الفلاسفة في الإنسان جزئين رئيسيين: الجسم المادي
والروح غير المادية، وكلاهما يتميز بميزاته: للجسم لحم وغطاء
يتغطى به في حين أن الروح العقل والنفوس والعبارة لهذا يعرف
الإنسان أحيانا بالحيوان الناطق مع تعيين النطق كأشرف ما يمثل
باقي الخصائص.

كذلك يميز العمل في الإنسان جانبين رئيسيين: الكائن
الإنساني عموما والإنسان الرجل في المعنى الضيق للكلمة.

الإنسان هو ذلك الذي يعني الحقيقة فيقبلها ويعني الخير
فيطبقه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، هذا المثال الإنساني هو وحده
الذي يمكننا بالسعي صوبه تجاوز طبيعتنا، ولا نترتب إلا على
اعتبار درجة نجاحنا في هذا السعي، فإذا قلنا الشخص الفلاني
أكثر إنسانية من الآخر فإننا في الواقع نجد المسافة بينه وبين
الحيوان.

من خلال تطوره في العلوم والنشاط الفكري ومن خلال ما
يقدم لإخوانه من المساعدة من خلال رحمته، عدالته وروح المساواة
لديه يمكن للمرء وضع ذلك الإكليل النادر "السعادة".

العمل الفرنسي

إن الأمة التي تغطي أناسا كثيرين من الصنف المذكور أعلاه هي التي تتمتع من السلام بقدر ما تحتزنه من هؤلاء، رعاؤها يكبر ورعاياها يزدادون حبا وتوضع في عداد الأمم المتحضرة. تماما مثل فرنسا التي تربينا من خلال العمل الصالح لمثلها الحاكم العام عنايتها الفائقة.

نحن في حاجة حقا إلى تبيان مخاسن الحاكم العام إزاء المسلمين وعلى رأسها المدارس العديدة المنشأة لمحاربة الجهل، والد كل أشكال التفرقة؟ وبالنسبة للمدرسة التي نحن فيها، كلكم تعلمون ماضيها المخزي فقد كانت مأوى كل "الحشائشية" وكل "السكاري" في المدينة، وكانت مصدرا لصنوف من التشويه والجهل والتعصب والفيضان والأشباح/كانت مدرسة للجهل أساتذتها ضعاف العقول.

وها هو ذا المكان على ما تروونه اليوم عليه يحيلنا بما يشيعه من علم على بيت فيكتور هيقو :

"كل طفل نعلمه رجل نكسبه"، أو على مقولة فولتير تلك: "إن أغلى هبة نقدمها للإنسان هي العلم".

هاتان العبارتان أليستا المنارتين اللتين يريد السيد الحاكم العام توجيه سفينتنا صوبهما ؟

لا ريب أنه لا سبيل للتحكم في القلوب سوى الخير والحب، أشعر بالأم أخيك، قال أحد الحكماء وأعدته إلى سواء السبيل إذا ضل فالضلال دين الإنسان.

الرجل نفسه قال : "عندما يعرف الناس اللطف الحقيقي، ستزول سبل الشقاق، إن القلب الذي تملؤه بعين الجميع وصدقات بعض الأطباء شقت أناسا أكثر مما فعلته أدويتهم. فلنزرع الحمل عن الآخرين لنخلص من أحمالنا" لقد قلت في كلمة قلتها لدى تدشين المكتبة الإسلامية : "الخير قد ينجح حيثما تفشل الأسلحة"، ويمكنني اليوم الإقرار دون مخافة الخطأ بأن قلوب المسلمين قد صارت بفضل حرص السيد الحاكم العام ملكا للجمهورية وبأن الميل صوب فرنسا قد فاق كل مرحلة.

كن كريما تملك القلوب كلها فلكم قيت القلوب لكرم الأعمال

إننا نلاحظ أن الأمة المتحضرة هي التي يتقاسم أناسها مشاعر اللطف والعكس صحيح، ماذا يمكن لفعل الرأفة التي يفعل؟ لقد رفض الإسكندر المقدوني بعد هزيمة العرب في صحراء شبه الجزيرة أن يبيل شفتيه من كأس ماء جاء به جنود ديوتون

عطف بكفي فعل مثل هذا كي تريح قلب الجيش كله وقد
فادهم مظفرين وغزى دمشق ثم المشرق كله.
الرافة طبعاً لا تعني الخنوع أو الزهد في الأعمال ؟ ما أعنيه
هو نشر الأفكار المثالية بين الناس، هل بلغت فرنسا بوسائل أخرى
المكان الذي تشغله اليوم بين الأمم المتحضرة ؟ إن التاريخ يرينا بدقة
بأن عظمتها منوطة بكثرة رجالها العظماء وقلوبها النبيلة.

التعصب والقبليّة

أما أولئك الذين يرفضون رؤية الأعمال الخيرة التي تقوم بها
القوات العمومية إزاء المسلمين، فلا بد أنهم لم يتساءلوا من قبل:
هل ما أفعله طيب أم خبيث ؟ عادل أم لا ؟ فيه شيء من الجمال أم
لا ؟

أسئلة مثل هذه التي تجربنا صوب الإنسانية الراقية، إلا أن في
الإنسان ما يدفعه دائماً صوب الأسفل فينسيه الحكمة إلا أن
القاعدة الإنسانية تفرض علينا أشياء مثل: إن العالم يقود الجاهل
والقوي يقود الضعيف، والغني يعين الفقير، بهذا الشكل تعلق
نفوسنا وبتزايد رصيدنا من الفضائل.

إن التعصب المشين مرفوض لدى النفوس الرفيعة ممثلو
فرنسا بما لديهم من حب للخير وللحرية يرون المتعصب كشاة
تهرب من قطع الحضارة، وكعدو يريد المساس بأسوار البنيان
الحضاري القوي، لأنه إذا كانت الحكومة ترضى لرعاياها
الحياة، فالمتعصب لا يرتضي لهم سوى الموت.

يقول شيكسبير: "ما تريد الحصول عليه بالقوة، يمكنك
تحصيله بابتسامة".

هل توجد قواعد خير من هذه السياسة العالم ؟ حزب الخير العلم واضح ، ومنقادوه من مجيء الشر والجهل بينون.

الجهل

المسلمون جهلة لا نقاش ولا إنكار، لا تستطيع مدح هذه الحال المزرية التي ستقودهم صوب الهلاك في حين هم تحت وصاية فرنسا، صاحب أوسع دائرة استعمارية في إفريقيا الحاكمة على امتداد يقول 7 ملايين كلم²، أغلب من يأهلها من المسلمين.

المسلمون الطيبون والمسلمون الخبيثون

إن من يدفعون الشعب المسلم صوب البقاء في جهله يعدون أنفسهم مسلمين طيبين بالارتكاز على قصص خرافية وأحاديث مكذوبة ينسبوننها إلى أنفسهم. إن الإسلام أقوى بكثير من هؤلاء الدجالين إلا أن هذا لم يمنع أن كثيرا من مساوئ هؤلاء قد صارت تنسب إلى الإسلام نفسه، والرسول الكريم نفسه يقول إن العلم روح الإسلام، يا إلهي ! أ نحن مجبرون على الاختناق تحت ضغط الجهل ؟

أما سليمان عليه السلام فيقول: "سعيد هو من يدرك الحكمة من الأشياء"، ثم يوظفها في حياته لتقوية ذكائه، لأن فوائدها تفوق ما يجنيه من مال بتجارته.

إن من ينتقدون أعمال السيد الحاكم العام لأجل تقوية إخواننا الجزائريين بالعلم والتكوين الذين يتمتع بهما الفرنسيون، ما عليهم سوى تأمل دروس التاريخ، ماذا تعلمنا يا سادتي ؟ إن أوروبا قد بلغت أوج التقدم في قرن لويس الرابع عشر الملك الذي أجرى إصلاحات ناجعة، واستحدث جوائز للعلماء بنى مصانع كبيرة، شيد مدارس الفن ومؤسسات العلم، وبكلمة واحدة حول فرنسا إلى أكبر منارة حضارية في أوروبا.

إن هذه المعطيات التاريخية قوية الدلالة.

ولنتأمل ما كتبه أرسطو على التحفة الذهبية التي شكلها الإسكندر على شكل كرة أرضية ذات وجوه هي الشعوب والأمم على كل وجه كتبت قاعدة حكيمة، ومجملها: "العالم حديقة أسوارها الحكومة"، "الحكومة قوة يحرسها القانون"، "القانون طريق بثبها الملك"، "الملك إمام يعينه الجيش"، "الجيش تقوية الثورة"، "الثورة مصدرها الشعب"، "على الشعب أن يكون خادما للعدالة".

ويدعون بين العبد وخلقه، لسوء الحظ أعداء الإسلام اليوم أكثر عددا من أتائه : أيها المسلمون إنني لأقولها باسم الحق والله إننا لصانعوا شقائنا !

أسباب التخلف

لقد هجرنا العلوم والفنون والتزمنا بالعزلة، إننا لا نبذل جهدا للناسي بالأمم المجاورة في تقدمها، إن ديننا يمنعنا سابقا من قيادة العالم والمؤسف أننا نرى والأمم الأخرى تتج ما يحثنا ديننا عليه، والأدهى والأمر أننا صرنا نكفر ونشيطن نتائج تلك الحضارة، لذلك تصيبنا صواعق سوء أفكارنا وأعمالنا.

أي عذر لنا وقد تمسرب الخمول إلى عقولنا ؟ أي مبرر إزائنا والكسل يمنعنا حتى من الاستفادة من الابتكارات العصرية ؟ أيها الإخوة هل ستختارون الجهل الذي يبعدكم عن كل شيء ؟ ماذا ستقولون دفاعا عن أنفسكم ؟ لقد خالفتم قرآنكم ورسولكم وابتعدتم عن تقاليدكم ونأيتم عن علوم زمانكم، كفوا عن هذه الخطايا، خذوا مثل جيرانكم وكفوا عن عبادة الجهلة، لقد حان الوقت للتجمع والاتحاد لأجل دفع عجلة العلم وإن التياهي بالعلم

أيها المسلمون ! لا حياة بلا علم، لا علم بلا بحث لا بحث بلا رغبة قوية في التماسي وهذا الشعور لا وجود له لدى أمة لها مستواها الثقافي متدن، لذلك فالتعليم والتثوير واجبنا جميعا، تلك هي السبيل الوحيدة للارتفاع بالمرء فوق درجة الحيوان وهي نفسها السبيل التي هجرها إخواننا.

تعاليم الرسول (ص)

الرسول يقول إن العلم كنز مفتاحه، فاسألوا إذا لأن السؤال منافع لأربعة : السائل، المسؤول، المستمع، والأقربون.

يا لها من تعاليم ! إليه يعود فضل ثقافة الجدود الزاهرة، لقد استفادوا آمنه وأفادوا الغير والتاريخ على ذلك شهيد، تعاليم الحرية، مبادئ البحث العلمي الذي يجعلنا نطلب الحق أنا وجد، حكمة بفضلها وعن السابقون جوهر الدين المناقض تماما للتعصب، إن التعصب الإسلامي لم يبدأ إلا منذ الحروب الصليبية، هؤلاء الذين أناطوا بالإسلام ما هو تقيضه، هم وحدهم مسؤولون عن هذا الوضع، إن حججهم البائسة للشتمات لا هدف لها سوى جعل الإسلام ديننا متعصبا متوحشا أبا لكل جهالة أخال لكل قساوة وإبنا لكل تكاسل، يخترعون خزعبلات يلبسونها لباس الدين

لخير من التباهي بالنسب. إن الفخر حصان لا يركبه سوى
الخسران.

صوب حضارة العمل

فلنعمل بشجاعة إذن "الذكاء يصلح الحال دون إضاعة وقت
في البكاء" صدق شكسبير، فلنحارب الجهل ولنتحالف ضد
الكسل والخوف، عدونا الحقيقي.

فلنتذكر أن حكومة الجمهورية الفرنسية لو أنها أرادت
بقاءكم على حالكم من تفهقر عقلي لما بنت كل هذه المدارس
ولما تجشمت كل هذه المتاعب لتكونكم، أيود قتلكم من
يعملكم أسلحة الحياة، استيقظوا وأيقظوا إخوانكم واعترفوا
بالفضل.

شكرا للحكومة الفرنسية وممثليها.

شكرا لكم أيضا أيها المسلمون الذين لم يستدرجوا خارج
دائرة الحق، ولنعذر الآخرين متذكري كلمة الفيلسوف : "لا
يمكنني الحكم على شعب برمته، بل إنني لا أجرؤ حتى على
اتهامه".

ثم إن المتعلم وحده حي ولا حيلة للميت ولو جيشت الجيوش
من الموتى في مواجهته : لو عاد من ماتوا منذ سنين ليروا ما صار من
وَدَّ بين المسلمين والفرنسيين لاندثشوا وإنني لأجزم أن الأمور
ستسير إلى الأفضل.

لقد ذكرت الحاكم العام مرارا ونسيت ذكر السيد المفتش
العام للمدارس، كل ممثلي الحكومة وكذلك كل الموظفين
والسلطات التي تشرف بحضورها هذه الاحتفالية.

يحيا العلم وأهله وليسقط الجهل وأتباعه !

حضارة الوفاق

محاضرة أقيمت بنادي صالح باي

سيداتي، سادتي!

إن اجتماعا كهذا لهو من الأهمية كل منا إنه ليدل على أن مجتمع الأهالي قد ولج مرحلة جديدة من الوفاق والسلام، إنه مؤشر على خطوة كبيرة على درب التقدم، ودليل قاطع على أن مجهودات الحكومة الحكيمة المتورة لم تكن هباءً.

هذه المجهودات أيها المسلمون، رأيتموها يوما بعد يوم إلا أنكم ستتحسنونها أكثر في المستقبل فكونوا واثقين في المستقبل وفي هذا الرجل الذي تلقى مهمة نقل أقداركم من الظلمات إلى النور.

سادتي، يتفق جميع الحكماء على أن الإنسان المتحضر إنسان لا يستطيع العيش بمفرده لحاجته إلى المجتمع وكلمة "تمدن" الدالة على الحضارة دالة على سكنى المدينة.

الحضارة إذن هي المصطلح الذي يميز مجتمعا أشخاصه كُيسون مؤدبون همهم العمل من أجل الصالح العام، إنها تتماشى

مع فكرة التجمع في حين أن التوحش يفترض غياب كل ما يعمل على رخاء البشرية.

إنه نقيض كل المبادئ الضرورية التي تتكئ عليها المجتمعات، إنه ترك القدر بين يدي الصدق وبكلمة إنه اللاتضامن.

لا أحد منا إذن يمكنه الاستغناء عن إخوته: العالم مفيد للجاهل والغني للفقير والسيد لخدمه والعكس صحيح والأمر نفسه في كل مجالات النشاط البشري.

أما أولئك الذين ينطرحون أمام تقلبات الصدق دون القيام بواجباتهم إزاء المجتمع والذين يتبجحون بالدين ويتظاهرون بالزهد في الحياة فهم - كما يقول بعض الحكماء شبيهون بشعر الإبط الذي لا دور له سوى تجميع الأوساخ والروائح الفتنة، لذلك فعلىنا هدايتهم من ضلالهم العميق.

فالشعوب سارت في طريق التقدم بالعمل وبالعمل وحده بلغوا السعادة والعمل هو المصدر الوحيد للثراء، الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام يقول: "أفضل الأعمال أدومها"، والكتاب المقدس يقول: "حركوا أيديكم وسيفتح الرب لكم أبواب الثروة"، ويقول محمد مرة أخرى: "إن الله يحب العامل ويكره العاقل"، في

حين كان يقول الخليفة عمر لصاحبه: "لا يقعدن الواحد منكم قائلًا: الله هو الرزاق، فإنتم تعلمون حق العلم بأن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة" وكان يضيف "يكفي أن يقال لي: هذا رجل كسول حتى أحقره".

نرونا كم أن أسلافنا كانوا يقدررون العمل فلم ينال الكسل من أسلاف هؤلاء إلى هذا الحد.

إن الله قد خلق الإنسان إلا أن بلوغ الكمال مهمة الإنسان وحده والإنسان الذي يظل عند مستوى الحيوان ليس حيا بالمعنى الحقيقي للكلمة، ما هو ذا امرؤ القيس رغم أنه جاهلي إلا أنه يتحدث عن العمل قائلًا:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفايتي ولم أطلب قليلا من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي

ما أروع الدروس التي يقدمها أمامنا هذا الرجل الجاهلي لإفهامنا معنى الكرامة الإنسانية...

سأدتي،

تعلمون أن الإنسان أشرف مخلوقات الله في هذه الأرض وأشرف ما فيه قلبه، مسكن الإيمان والعقل والحكمة، فكيف

لهذا الخلق الشريف أن يعالاه الجهل والخبائث تلك أمراض القلب التي علينا محاربتها دون هوادة، تلك نجاسة لا بد من التطهر منها.

كان الرسول (ص) يقول: "ثلاثة أشياء تمس بآدم: كثرة الشح، العجب بالنفس ودناؤه الروح"، كم حاد أبو حامد الغزالي من هذه الأمراض، والرقى بأرواحنا والتحلي بالفضيلة.

كان الرسول (ص) يقول "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" وكذلك "أطلبوا العلم ولو بالطين" إن التكوين المعق فريضة علينا جميعا إن أهملها الشعب كله تصير بالضرورة فرض عين فإذا قام بها جزء من هذا الشعب صارت فرض كفاية لذلك فالأمر بالمعروف واجب كل المسلمين وبالقياص فإذا حافظ على التعاليم جزء لا بأس به من المجتمع فإن هذا المجتمع لا يصير كافرا إذا لم يكن كل الناس مؤمنين، كذلك هي الحال بالنسبة للعلوم فعلى التزود منها على تنوعها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

إن الإسلام ليتيراً ممن نراهم يدعون إلى مقاطعة الأدوية لعلاج الأمراض بحجة القدر، إن الإسلام يؤمن بأن الله هو خالق الخير والشر معاً، ومن آمن بالله فليؤمن بهذه الأشياء أيضاً.

سأدتي،

لقد حاولت بكتابات موجزة إعطاء صورة عن حالكم وصورة
عن بعض حقائق الدين الإسلامي، عقيدته، أحكامه، تعاليمه
ومحرماته.

ما الخلاصة يا ترى ؟ فلنستنتج ولنقل أولا إن الأمة مثل أمثا
يجبها تاريخها على مواجهة الحقائق !

الحق أننا جهلة ! الحق أننا كسالى ! الحق أننا في ضلال !
صبرون على الانحطاط وجاهلون لدور الإنسان على وجه الأرض،
لقد أممنا تربية ابنائنا، وتلك هي وسيلة التقدم، هذه التربية هي
التي تسمو بأمة وتخط بأخرى، والتي سميت بالأوروبيين وآلت بنا
ضوب الحضيض.

يا لكم أيها المسلمون، أنتم الذين تعيشون مع الجهل في
وفا، بركم الذي تغدؤون ويحق رسولكم الكريم، ألا ترون
الخسر أن الذي أصاب ثرواتكم وأنفسكم معا ؟ هذه الثروات
التي تراكت على مر القرون بفضل أسلافكم وجهودهم المضية
والتي يمدتها بين عشية وضحاها.

إنكم ترون الحيف بأم العين في كل يوم، ومع ذلك فأنتم
تقبلونه، نسيت دينكم ثم ازورتم من الإصلاحات التي جاءتكم مع

المعمرين، ما هذا الكسل ؟ إلى متى هذا الخنوع ؟ لقد بلغتكم
حضيض الحضيض !

ماتت قلوبنا فصرنا لا نفكر في إخواننا ولا نشعر بمن يعاني
من الجوع ولا نشعر تماما لأبنائنا بأي شخص يشعر بأية خصاصة.

أسلافنا يتولون إن الساكت على الحق شيطان أخرص ألا
ترون أثرياءنا مزهوين بأنفسهم يلبسون الفاخر ولا يبرجون
الحفلات ؟ ألوانهم زاهية أفواههم مملوءة مشيتهم خيلاء، مظهرهم
كبرياء، يتكلمون بفخامة - دلالة الجهل - ... يملؤون الشوارع
بتسكعهم وعظالتهم دون إلقاء أدنى نظرة على الكادحين
المحيطين بهم من أبناء دينهم.

أيها المسلمون، ماذا تفعلون بهذا الدين الذي يقول أن من لا
يرحم الغير ولا يرق لعذاب الغير، مهما كان اسمه، لو أنه ودينه ليس
مؤمن ؟ دين يعلم التكافل والتعاون ويدعو إلى التراحم بل إلى رحمة
الحيوان أيضا، ويمنعكم حتى من كسر حجر إن لم يكن وراء
ذلك نفع ما []

لهذا يدعونا الإسلام ويأمرنا بالتعاون على البر والتقوى.
ولكن هذا مستحيل الحدوث إذا كنا في مجتمع لا يؤمن بالعمل
الجماعي للصالح العام ! علينا يا إخواني أن نرقى بأنفسنا، وأن

تترجم أعمالنا الشعور بضرورة رد المعروف الذي أسداه لنا مجتمعنا
واسدته لنا عائلتنا.

لقد استفدنا ولا نزال نفعل من أعمال آبائنا وأسلافنا فماذا
ترك لأخلاقنا؟ من لا يعمل، هنا، بيننا، عنصر لا فائدة ترجى
منه، ولا يد من اجثائه أن هذه حكم جميلة وعاما الإسلام ودعا
إليه دائما، ومن المؤسف أننا لم نعد نعيها جيدا، وأنتا تخليتنا عنها
بل إن منا من يقول إن العمل ليس واجبا وأن التفاوت فيه سنة إلهية،
وأنهم ليسوا مجبرين على بذل مجهود بفضل مولدهم فحسب وأن
الثروات تنوزع دون اعتبار للعمل والجهد، وأن العالم قارب نهايته
والأ فائدة ترجى من أي شيء كان، فليعلم هؤلاء أنهم ليسوا من
الدين في شيء وأنهم على خطأ كبير.

إن الله خالق الإنسان، قد وهبه كل الخيرات أظهر له بعضها
وأخفى البعض الآخر بهدف دفعه إلى السعي والعمل لتحصيل
العسير والوصول إلى درجة أن يسكنه الفصول الجميل - ما التزم
بالحدود والضوابط - والذي يدفعه صوب هذه المخفيات، ثم وزع
الله سبحانه الثروات بعد ذلك بحسب العمل، وبحسب إقبال العباد
عليه.

ثم نسمح أبدا بأن أسلافنا منذ الرسول (ص) حتى بفداء
والبصرة وقرطبة وسمرقند قد أفلحوا عن العمل مكتفين بالإيمان
بأن الله مسير أعمالهم، ومن قال بما شابه هذه الترهات فهو جاهل
وإن دعي عالما ويكفي التذكير بحديث الرسول (ص): "اعمل
لدينك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

إن هنالك سوء الحظ - من يقبل هذا التواكل وهذه
الجبرية ثم يتشرها ويدعو إليها وأصدق تشبيه لهم ما أورده نبي الله
عيسى عليه السلام إذ قال إنهم كتلك الصخور التي تعترض النهار
فلا تفعل سوى منع التيار من التقدم.

لقد من هؤلاء الناس الذين والمجتمع الإسلامي أي مساس
إلى درجة خلق مجتمع كسول سلبي، إن تواجدهم بيننا هو الذي
جلب هذه الرخاوة التي صرنا نشعر بها حولنا والتي تذهب إلى حد
التخلي التام عن واجباتنا والنسيان الصريح لتعليم ديننا التي صرنا
نقرؤها دون فهم، وذلك رغم قراءتنا مرارا للآية: "أ فلا يتدبرون
القرآن"، لماذا ترى جاء هذا الكتاب؟ ليس الهدف إحياء العلوم
والدين؟

إن من يحفظونه عن ظهر قلب أكثر بلا شك، إلا أنه من
المؤسف أنه لا يفهمونه، ولا يتبعون تعاليمه، ثم إذا رأوا من يدرس

الجغرافيا، أو الطب أو الطبيعيات والتاريخ والنبات والحيوانات والتشريع، وكلها علوم بالغة الأهمية بالنسبة للإنسانية، اصطنعوا عدم الاكتراث، وقالوا إن بكل ذلك بلا فائدة للإنسانية قبل أن يدينوا الأمر تماما، فإن سألهم : ماذا تفهمون من قوله تعالى : "إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" أو قوله - جل وعلا - "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" ؟ قالوا إنهم لا يخوضون في تأويل الآيات لعسر الأمر وتعقده. ولجفهم من مغبات الفهم السيئ والتأويل الذي يوقع صاحبه في الحرام : لقد أحالوا الإسلام، دين التسامح السيئ إلى ديانة جافة متقلبة ومتعصبة.

تكيف تريدون، سادتي، التقدم بهذه الطريقة ؟ أخرج يوما من حالنا التبعية هذه بهذا الشكل من قراءة النصوص بلا فهم ؟ ولا أقول هذا لمن يسمعونني فحسب بل القول يعني الجميع.

أعلم جيدا أن حب الدين من طبائع المسلمين، ولكننا نحب الإسلام دون إدراك ما يحويه من جمال وخير وخلق، إن الحب غير كاف، لا بد من التشبع من هذا الدين والتعمق فيه.

لهذا لا يحق لنا لوم من يصفوننا بالتخلف، الحضارة، إنها الإسلام عتيق، لأنه يأمرنا بمواصلة العمل، بالمحافظة على صحتنا، بالبحث العلمي، بإشاعة المعرفة حولنا والتخلص من الأحقاد، ومن

الأحكام السلبية على من يخالفنا الأمانة، الثقة، الاعتدال، الاستقامة الخير والإحسان للغير : أليست هذه هي قيم الحضارة ؟ أم أن الحضارة في أعينكم ليست رديفة إلا للزنا والخمر ؟

هل تعلمون ماذا يقول القرآن ؟ : "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا لهم بركات من السماء والأرض" : ويقول مضيفا فيما بعد : "وأن لو استقاموا على الطريقة لاستقيناهم ماء غدقا"، تأملوا الأوربيين المحيطين بكم وتأسوا بنموذجهم لاحظوا تكوينهم ووحدتهم ثم انظروا إلى فرقتكم وجهلكم، تأملوا سعيهم صوب الكمال وتطورهم ثم انظروا صوب جهودكم أم أن عيونكم صارت لا يرى وعقولكم صارت لا تتأمل.

لقد تركتم تربية أولادكم وتركتم مصالحكم ومع ذلك تضحكون وتلهون وكان الأجدر بكم البكاء وجيوش الظلام والجهل تحيط بكم من كل جانب.

إن الحكومة الفرنسية تساندكم دائما، إلا أنها لا تستطيع العمل وحدها على تطويركم والدور دوركم كي تعينوها على هذه المهمة النبيلة، فلا تدبروا ولا تزوروا مقلبين صوب من يجرونكم وسط الباطل باسم الدين الذي يشوهونه لأي هؤلاء المدعين هم أعداءكم الحقيقيون أنتم ودينكم الإسلامي.

أرخصوا ناصحي النبوة وابتعدوا عن الفضيلة أنا ككائنات،
بواسطة تكوين قوي لا بواسطة تعاليم أساسها التأويل الخاطي
والتعصب الفارغ، دعوكم من القصص التافهة للمسيح الدجال لأن
تتكم كلها تكمن في الأرض التي تحرثون، احرقوها وازرعوا
فيها الذهب ثم ضعوا ثقتكم في التكوين الذي سيقوي عقولكم
ويضمن لكم مستقبلا أفضل !

لديكم قرآنكم وأحاديث رسولكم وكذلك تعاليم
أسلافكم التي قادتهم صوب المجد فاتبعوها إذن والحكومة من
جهة أخرى مبعكم قلبا وقالبا لا هم لها سوى تطويركم؛ ما مبرر
الفضل إذن ؟

توحدوا أيها المسلمون وليحب بعضكم بعضا وكونوا يدا
واحدة في هذه الجزائر الجميلة تحت راية السلام والوثام والعروة
الوثقى الإسلام إلى جماعة أجود من الجماعة إلى الإسلام.

الأمانة والعرفان

خطاب شكر للسلطات الفرنسية

سيداتي، سادتي،

لكم أود التعبير عن بالغ سعادتي لهذا المحفل المعبر عن
حبكم، ولكم أود وجدان الكلمات البليغة التي تؤكد
للحكومة التي كم شرفنتي، مدى عرفاني وإخلاصي واحترامي.

ديني لفرنسا لن يجد له هنا مترجما، إن هذا الوسام الذي
تزينونني به لهو يعني الكثير من الأشياء، كما يسمح لي بسعادة
أن أرى هنا حولي نخبة مدينتنا وهي تشرفني جم الشرف. إتني
لأرى قيم تفعله فرنسا مع أبنائها الكرماء مع الحواريين قوبي
العزيمة في مجال الأخوة والإنسانية ومع كل من يعمل لاجتثاث
الشفاق والشر.

إلا أن علامة ثقة مثل هذه تذكرني خاصة بواجبي، هذا
الواجب أقبله برضا وشهادة ينير دربي فيه من سبقوني وسأقتني
آثارهم دون أسف ولا غصاصة.

شكرا لكم بسدى مدير المدرسة يا من عرف كيف
يكسب ودنا ولكم السيد غورليو أنتم من ترأسون بسماحتكم
المهودة اللجنة الاستشارية لمذهبنا ولكن السيد الأمين العام يا من
تضعون بسماحة ذكاءكم ووقتكم في خدمة تحسين أوضاعنا
ولكم أخيرا عزيزي بلعبد يا خير ظهيرا لي في معركتي ضد
الجهل، شكرا على لغتكم الفصيحة التي أخشى أنه لا قلومي ولا
لساني سيجدان ما يكفي من البلاغة لشكر ما صدر عنكم
بالشكل الملاءم.

سأدتي،

قيل مرارا إن السيف والقلم رفيقان وفيان يمكنهما تحقيق
كل شيء، فعلا فمن يجهل ما من شأن قلم فصيح يشعر بأن القوة
تظاهره وتقف على ضفته، أن يفعل ؟

الحكيم، أقصد رجل القلب الذي لا يعرف سوى التقاليد
الظاهرة للعمل والذي يعيش بسلام لا هم له سوى خير بلاده والذي
لا شغل له سوى رخاء أمته.

هذا الحكيم ما الذي يمكنه أن يأمل أكثر من الحلف
الفعال للقوة والفكرة : القوة التي تفرض نفسها والفكرة المقنعة،
فما فائدة الشراء لبلاد أخشاؤها تنقطع وأعضاؤها في شقاق ؟ أليس

الخير كل الخير كما من في القلب، أليس الواجب هو إقناع العقل
وابتصار الأرواح ؟ أليس هذا هو الفلاح الحقيقي. الفتح الشريف،
الفتح الخصب ؟ هذا الفتح، بلا شك لا يمكنه أن يتحقق دون
بعض العسر.

بالنسبة لي أيها السادة وأنا أعترف بذلك فمن يعلم احتقار
الإنسان الذي لا يكون كلامه ترجمانا وفيما أفكره لقد كنت
أعد من قبل إخواني في العقيدة مستشارا غير مأمون، ومع ذلك
ورغم المرارة كنت أشعر في داخلي بقوة تفتأ تزداد فتتير طريقي
وتجبرني على السخرية من كسلهم وتداعيتهم وبلادتهم. كنت
أستمد القوة من رغبتي في تحسين حال إخواني بتقريبهم منكم
سأدتي الفرنسيين، والرغبة نفسها تسكنتني في إعراب عرفاني إزاء
الحكومة التي تفعل الكثير الكثير لأجلنا.

لأننا اليوم هنا في حضرة قوتين أراد الله لهما الاجتماع، فإنني
يتوجب علينا أن نعمل جاهدين من أجل غلبة العلم على الجهل،
: حضارة على التوحش.

على امتداد مسيرتي دعوت للخير، وعرضت أفكارني بكل
حرية منتقدا خصومي، هجرني الكثير وخانني البعض، إلا أنني

مؤخرا حظيت بجمهور جديد، ودخلت قلوبا لا عهد لي بها، وصار
لي أتباع حتى من أولئك الذين كنت يائسا منهم.

لا ادعي لنفسني شرف إنجاز عمل هو عملكم، سادتي،
أكثر مما هو ينسب إلي ما يملأ نفسي شعورا بـ : شرف الانتفاء إلى
تلكم والرغبة في المواصلة، ما أفعله هو فقط الإشارة إلى بعض
النجاح الذي حققناه، فإنا واثق من أنه من دواعي سرور المدرسين
نجاح مهامهم التدريسية، وشيوع التور الذي يحملونه وتبدد ظلام
الجهل والتعصب من سماء المجتمع الإسلامي.

افتخروا بعملكم أيها السادة المسيرة ناجحة ولولا بعض
العقبات لكنا قد حولنا كل شيء عن حاله، ولكننا مسرعين في
مسيرتنا على طريق العلم والخضارة فلندع جميعا بالنصر والبقاء
لجمعية صالح باي.

أما أنت، سيد أريب، يا المؤسس الفعلي للجمعية الأهلية، فإنا
عاجز عن تعداد مزاياك الكثيرة، وأما أنت في العمل، ونزاهة
إدارتك وحزمك وكلها صفات جرتنا جرا صوب احترامك وحبك.

لقد فتحت جمعية صالح باي مرحلة جديدة من الرخاء
والسعادة، وكانت درسا واضحا لتذكير المسلمين بواقعهم

وبالحقائق المحيطة بهم ودواء فعال لبعض الأمراض الأخلاقية التي
كانت -ولا زالت ولو جزئيا- تعجز جسد الجزائر.

لهذا فإننا لا نستغرب نظرات الحقد، ومشاعر الغيرة،
والأفلام التي تتفنن في إلحاق أبشع الصفات بأروع الناس وأفضلهم
وأبعدهم عن المنقضة والرديلة... وتلك هي سيرة ضعاف النفوس
ومرضى القلوب وعبيد الرديلة والكارهين للبشر منذ بدء الخليقة.

وليعلم هؤلاء الناقمون أن حقدهم لم يفعل سوى تقوية
الجمعية، وتعزيز صفها وتحسين صورتها لدى القوات العمومية،
وليعلموا أن أعضاءها وكلهم أقوياء ثابتون تعززهم التشجيعات
وتزيد نزاهة مسيرتهم وتواضعهم وزهدهم في الأشياء عزما على
المواصلة والمضي قدما صوب أهدافهم.

وستعكس مرآة المستقبل صورة نصر الجمعية النهائي، وهو
نصر ستعترف به فرنسا أيضا رغم كل ما يقال في حقنا،
وسنكون آنذاك إزاء مسلمين نشطين عاملين جادين مجتهدين،
واعين يحقوقهم وواجباتهم، أوفياء كرماء كأسلافهم الجيدين،
يفضلون الموت لأجل وطنهم المتبني على خيائته وإهائته.

هي كلمات أود تسمعها فرنسا برمتها وهي تسمعها من خلال
ما تبدو عليه صورتكم أنتم أيها السيد الأمين العام، يا موضع

ثقتنا وتقديرنا، لقد شعرت وأنتم تعلقون الوسام على كتفي بأني
أقف أمام الجمهورية الفرنسية جمعاء.

نقوا، سادتي، أن هذا الصليب جاء يتموضع قرب قلب يعشق
الحق والعدالة ويأمل من أعماقه أن يرى هذين الشعبين يسيران جنباً
إلى جنب تحت الراية نفسها، والشعور بالأخوة يملؤهما.

لن أغفر لنفسي إنّهائي نكمتي دون توجيه كلمة شكر
لشيخ بلدنا السيد مورنيو الذي نكن له أسمى مشاعر الاحترام
والامتنان.

ولينعم الله علينا بنعمة أن نرى بيننا دائماً رجالاً يهمهم شأننا
إلى أن يدخلوا قلوبنا بلا إمكانية الخروج.

أسباب الانحطاط

تعاليم القرآن

المحاضرة الثانية الملقاة في جمعية صالح باي

سيداتي، سادتي،

لو سئلت الليلة: من أسعد الناس، لأحببت بنشوة: "أنا" وكيف
لي ألا أكون كذلك، وأنا أحظى بشرف المشول أمام هذه الوجوه
النيرة المتميزة بأذهانها الثاقبة، أمام أبناء العلم، أولئك الذين
يضطلعون بمهمة الإحياء لأبناء فرنسا بحبها، إن ارتج علي فأعذروا
ضعفي وأقرؤوا في ذلك عمق احترامي لكم وعظمة صورتيكم في
نفسي تفضلوا سادتي علي بالاستماع وامتحنني أذهانتكم وقلوبكم
لكي تملأوا فراغات قد خلفها لنا في من نقص ووهن.

تعلمون جيداً كم أن التعاون حمال للخير وكم أب الاتحاد
بين رجال الحكومة والمدرسين والشباب جلابة كلها للرخاء المادي
والمعنوي للإنسانية على اختلاف المهام المنوطة بكل زمرة من هؤلاء.
فإذا كان حب التكافل والخير العام جُبله جبل عليها الناس

اجمعون فإنه عند المسلمين من علامات صحة الدين، بل إن علي بن أبي طالب كان يقول إنه لا سعادة للناس إلا بمقدار ما أو دعوة من ثرواتهم في حق طلب الخير للأرض التي يسكنونها.

وقد جاء عن الأصمعي أنه نزل على أعرابي ذات يوم فطلب منه شيئا من الحكمة فأجاب إن أردت معرفة عقيدة الرجل فانظر على رأفته بإخوانه وحبه لبلاده، ونقرأ في القرآن "تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان".

فمثلا نقرأ "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"، هذا الرخاء لا يجلبه شخص واحد، وقد صدق من قال : ماذا بإمكان الإنسان وحده أن يفعل حتى في قلب الجنة ؟ ماذا يستطيع العاقل وسط الجهلة ؟ قد تكون، إخواني آتين من عقيدتين مختلفتين إلا أن نواجهنا على الأرض نفسها يجبرنا على أن نكون متعاونين لأننا نحب هذه الأرض بقلب واحد، ونفعل خيرا يجلب علينا خيرات تشملنا معا.

إذا كان الله قد وزع الأرزاق في الأرض، ودفن بعضها بعيدا عنا، فإن له سبحانه حكمة من ذلك، هي أن يدفعنا للسعي لأجل تحصيلها في الأرض وفي البحر، ثم لطلب ما ينقصنا عند الغير في حين يطلب الغير عندنا ما لا يملكونه بهذا الشكل يحصل

التعارف، إضافة إلى ما في السفر والترحال من تطوير للمعارف وتقوية للتجارب لأجل هذا لا بد على بعض العسر أن يختفي من طريق التقدم وهذا ما كان نابليون يشير إليه حينما قال : "إن فرنسا تعمل جاهدة لتطوير وتحضير الأمم والبلدان، إلا أن كثيرا من هؤلاء لا هم له سوى ردع عملها وكسر بنياتها، ولولا ذلك لكنا بلغنا أعلى القمم وأبعد النقاط الممكنة".

يحيرني كثيرا أن أرى أناسا يمنعهم عما هم من رؤية الصالح العام، بل إنه ليبدو أحيانا وكأنهم يلومون الله -عز وجل- على أنه خلق العالم بهذا الشكل وليس بشكل آخر، أو ينتقدون تعدد الأجناس والألوان والأصنول والألسن وكأنهم يجعلونه -سبحانه- مسؤولا عما بين هؤلاء من فرقة وشقاق وتناحر وحروب "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة"، ليس هذا الخلق عيبا، فدعوا نواميس تمضي لحكمة يعلمها.

يقول علي -كرم الله وجهه- : "الإسلام دين عظيم جميل، ولكم أن تؤمنوا بما تشاؤون"، إن احترام كل العقائد وكل الأفكار لهم علامة من علامات التحضر.

صدق الشاعر القائل :

يقولون أم خالد كافرة فقلت ذروها كل نفس لدينها

ذلك هو واجبنا، أيها الإخوة، على اختلاف ديننا وأمتنا، لأننا
بنو وطن واحد ومهمة الحضارية مشتركة، والمبدأ التكافل
الاجتماعي واحد بيننا.

الجهل والتعصب وحدهما جفلا الإنسان عدواً لأخيه الإنسان
أكاد أتمثلنا كذلك الذي رأى هنالك على الأكمة شكلاً غريباً
أخافه، فلما اقترب اتضح أنه إنسان، ولما اقترب أكثر وجده
شقيقه ابن أمه وأبيه ! أليس تنكسبير صادقا وهو يقول : "إنها
الأنوار الضئيلة المحيطة بنا التي نجعلنا لا نرى الخير المحيط،
ونحجبه عنا، ونفشي السعادة حتى نظن أنها لا وجود لها".

نحن في حاجة إلى التوسع في موضوع تخلف الأهالي، لا
أبداً، إن الأمر لو اوضح بين لا يحتاج إلى بيان.

من منكم يا ترى لم يعاني انحطاط المسلمين الجزائريين
مادياً ومعنوياً ؟ إن قراءة بسيطة في تعاليم القرآن ومعانيه فيما يأمر
به وما ينهي عنه، ثم نظرة سطحية صوب الحال المزرية للجزائريين،
تعصبتهم، كسلهم، تراخيهم، وتواكلهم، يجعلنا نقسم بأنهم
المسؤولون عما لحق بهم، بل إنهم مصدر كل شر من الشرور التي
يشككون منها : الأنانية، الجهل الكبير والتضحية بالصالح العام

لأجل الصالح الخاص. تلك، سادتي، هي الأسباب الكبرى
لأنحطاط المسلمين !

تأملوا، سادتي، في القرآن ولننظر معا إن كان لدينا
تعادي الحضارة المعاصرة والتقدم، وهل هو كتاب يدعو الجبرية
والتواكل واضطهاد المسيحيين مثلما يدعي البعض ! العكس هو
الحقيقة. إنه يدعو إلى الدراسة ومحبتها، بفرعيها : العلوم الشرعية
وعلوم الدنيا عموماً، إنه الكتاب الأول الذي أصر على التعاون
والتآزر والتضامن.

لا، سبب انحطاط الأهالي ليس قرآنهم، لأنه لو كان سبباً
للانحطاط لما سمح لأوائل المسلمين ببناء الحضارة الزاهرة التي
تعرفها. الفرق كل الفرق هو أن أولئك تجشموا عناء الفهم الصحيح
الذي لا بد منه وإلا فلا معنى للكتاب برمته.

لقد وضعوا اليد على ستة أجزاء لكل منها تعاليم جميلة
مفيدة.

الجزء الأول يحث العمل، وهو يحوي ما ينيف على 700 آية.

الجزء الثاني يدعو إلى محاربة المحرفين والجهلة ودعاة الباطل
الذين هدفهم خداع العقل من خلال زرع بذور الأكاذيب. أكثر من
1000 آية.

الجزء الثالث يتناول غمران الأرض وبناء الممالك، وأسباب الانحطاط، أو أسباب اندثار أمم وأزدهار أخرى، ويضرب هذا الجزء المثل للأجيال المقبلة.

الجزء الرابع يتناول الممارسات اليومية والسلوك الاجتماعي، اللباقة، طاعة الوالدين، والاعتبارات الواجب التسليح بها إزاء الأصدقاء والنجيران، الخ، أكثر من 700 آية.

الجزء الخامس موضوعه الإسلام عموماً، والقواعد الخمس التي هي قواعد سلوكية وعقيدية مبنية على دروس في النظافة والاستقامة والتكافل الإنساني، فالصلاة تتطلب النظافة التامة، والصوم طهارة للبدن، والزكاة إعانة من جيب الغني في جيب الفقير، وقد مدح الرسول ^{صلى الله عليه وسلم} مزاياها دون كلل وما الهدف من هذه التعاليم، سادتي؟ الهدف الرئيسي فلسفي، إنه جعل الأقوياء يراهمون باليسطاء والضعفاء، والمؤاخاة بين محظي القدر ومن هم أقل حظوة، والهدف الآخر مادي، إنه تحسين وضع البشر.

للحج فوائد كثيرة، على رأسها حب السفر، وتطوير العلاقات الدولية (والتجارة أساساً) الكل يستفيد من فترة الحج إلى درجة أن هنالك من بدو شبه الجزيرة من يربط كل الآمال على أيام الحج.

الجزء السادس خاص بالعذاب الذي ينتظر المخطئين، إنه قانون مدني وقانون عقوبات فيه كل الضوابط ماذا ينقص القرآن إذن؟

تاريخ، أدب، علوم، حقوق، كل شيء يجد له في القرآن شرحاً بليغاً دقيقاً بأسلوب أنيق جداً، أليس هذا العصر أكثر دلالة على الحاجة لهذه القيم من كل عصر مضى؟

لقد أصاب المسلمون مذاق الآداب والفنون والعلوم، وتركوا اللياقة واللباقة وانغمسوا في أعمال يتفق العلماء والحكماء في كل زمان ومكان، ويتفق خاصة رسول الإسلام على وصفها بسبب الانحطاط، هذه الأعمال سبعة، ولكل منها أضرار متزايدة الخطر.

أولها غياب تلك الحكمة وتلك القدرة على التمييز، إذ يصير المرء يربط كل ما يحدث بالعين والحفظ السيئ، ويعجز عن معالجة أشيائه، وتمهيد مستقبله انطلاقاً من حاضره ثم يضطر إلى الانحطاط والزديلة لعلاج تقلبات الدهر.

الثانية هي تلك الرذائل الحقة المتخلفة القهرية تبقى إحدى أدهى مشاكل مجتمعنا.

ثالث السبعة هي مفارسة الزنا والانحرافات الجنسية المتنوعة،
والسبب في ذلك تأخر سن الزواج، وينجر عن ذلك تضييع المال
والصحة، أما النتيجة على المستوى الاجتماعي فهي تدهور النمو
الديمقراطي وانحطاط العائلات الشريفة.

في الدرجة الرابعة يندرج الكسل والخمول والسلبية وحب
السلبية والتوهم والأخطر في الأمر هو ما ينتج من تدهور قيمة العمل
الاجتماعي، وكلنا نعلم قسوة العدد.

يلي ذلك خطر الكحول والأدمان عليه، وتناول مختلف
أصناف السموم البطيئة شكسبير يشبه المغمور بالحيوان
المتوحش، وأنا أخرج من المساس بالحيوان بتشبيهه بهذا الإنسان
المنحط.

المثل الإسرائيلي القديم يقول محققاً: "حينما يعجز الشيطان عن
دخول بيت ما يرسل المشروبات الكحولية لتمهيد الطريق".

قد ندرج بيسر ضمن هذه المساوئ تعداد الزوجات، وكلنا
نعلم يومياً شرور الغيرة بين الزوجات، ونرى ما ينجر من فقر
وبؤس، ثم أضيفوا إلى هذه التشكيلة جهل الزوج غير المتعلم وابتنعاده
عن روح العدالة والمساواة، والشر كامل!

سابع السبعة هو ظاهرة وصول الجهلة الأميين إلى مناصب
مرموقة في الدولة، كان الأفضل يأبىها السادة أن يظل هؤلاء عند
الحالة الحيوانية التي يصفها دارون في كتابه الشهير، إذن لكانوا
أقل شراً !! ثم إنه لا من اختيار أقلهما إن خيرنا بين شرين!

سادتي،

أفتنا الجهل والفقر، وتلك هي حال الأمم كلها، بعد التقدم،
التخلف والتقهقر، إلا أنه واجب علينا التذكير بمجهودات الإدارة
الفرنسية لعلاج بعض الأمراض، فالجزائر اليوم تسير، تحت
الوصاية الحكيمة الكريمة، على الدرب المستقيم، من كان
ليأخذ بأيدينا لو لم تفعل فرنسا!

لا بد من توحيد الجهود، ووضع الأيدي بعضها في بعض
للمضي قدماً. أما أنا فواقق تمام الثقة من حسن نوايا الفرنسيين
إزاءنا، والأدلة التي توضح ذلك تفتأ تزداد وتتكاثر، لا ينكرها إلا
جاحد، وخاصة منذ مجيء شخص بعينه إلى الجزائر. أقصد
السيد جونا، الحاكم العام.

إن فرنسا، الأمة المستعمرة القوية، مثل الصياد الذي لا هم له
سوى توجيه الطريدة صوب مكان الطعم، أو مثل ذلك الأب الذي
يتبنى ابناً فيهبه تربية وحناناً يناظران ما يهبه لابنه من صلبه. وإنتي

لأقول هذا الكلام دون مهابة ولا وجل، وذلك لعلمي أن الحقيقة التي أنطق بها هي حقيقة تدركها وتستوعبها عقول منصفة ثقافية كالتي تشرفني في هذا المجلس بحضورها.

أسألكم بربكم، هل كنتم فيما مضى مثلما أنتم اليوم ؟ إكان يمكننا الاجتماع لمناقشة أمور دنيانا كما تفعل الليلة ؟ إكان للرئيس صوب أمام الرؤوس أو للعالم أمام الجاهل ؟

لا وألف لا، لم يكن لأي شيء من هذا وجود إذا كان صحيحا أن الحكومة روح الشعب جسمها فإن الشعب الجزائري عضوا لا شك فيه من الجسد الفرنسي الكبير. فعلا، ألسنا رعايا فرنسا ؟ إن كلمة "رعايا" هذه تثير بعض ردود الفعل، ولكنها ستطور مع الزمن بلا شك، والعضو، سادتي، مريض، إذا فعلى جميع الجسم التحرك.

قد يقول قائل إن من الأمراض ما سيتأهل البتر، ولكننا نسمح لأنفسنا فتأمل في إمكانية إنقاذ الأهالي مما هم فيه من ظلامية، وأملنا يتركز على ما نتجسسه من الرغبة في التغيير ومن التغيرات البطيئة ولكن الفعلية التي هي بصدد التمثه في مجتمع الأهالي، لذا فأننا أرجو، باسمي وباسم جميع أهالي الجزائر، من السيد الحاكم العام وكل السلطات الفرنسية أن يواصلوا المهمة

التي بأشروها، وأخص بالذكر جانب المهمة المتمثل في التعليم المزاج بين اللغتين : العربية والفرنسية، فالفوائد التي جناها متعلمو اللغة الرسمية لا تعد ولا تحصى.

إنه من الضرورة بإمكان أن يتعلم الأهالي نفس التعليم الذي يتلقاه الفرنسيون.

أيها المسلمون، ألا تذكرون محبة أسلافكم للزراعة ؟ خلفائكم فضلوها، وأثرياؤكم مارسوها وشعراؤكم تقنوا بها، والله حيانا بعقول لا تقل عن عقول الآخرين، وأنعم علينا بدوق من النعم، فلم يبقى لنا سوى مباشرة العمل وترك الخمول.

بالعمل وحده تضمن كرامتنا، العمل يغير كل شيء، والتراب لا قيمة له إلا متى عملنا عليه، وبهذا الشكل فقط نبلغ ما لم نكن لنبلغه أبدا.

بلا عمل ولا صبر، أن يمكن للإنسان ترويض الحيوانات ؟ بل وحتى الحشرات، كالنحلة ودود القز بلا عمل إكان يمكننا أن نحلم بالسيطرة على الجماد وتحريكه ؟ ها نحن أمام السيارة والمنتاد... كل ذلك نتائج الفكر البشري، والذكاء، تلك الذخيرة التي لا يد من المحافظة عليها وحضرها إلى أبعد الحدود، كما كان يطلب منا رسول الإسلام (ص) فاتحا الباب بقوله : "أنتم أبرد

يشؤون دنياكم" إن ما يقصده، وأنا أتكلم على أساس كوني
مفتيكم، هو أن كل جيل يعني تحدياته الخاصة.

ثم تحرث الأرض بالمحاريث الخشبية والحيوانات في حين
توجد الجارات؟ إن الإسلام يختار دائما أيسر الطرق وأنفعها متى
تم تخيير، فدوره الانتصار للعقيدة الصحيحة لا بالفكر والاعتقاد
فحسب، بل بالأعمال أساسا، وكل ذلك يدخل في ما يصفه الله
بإخراج الناس من الظلمات إلى النور. أما أولئك الذين يريدون أن
يقرؤوا في القرآن كل شاردة وكل واردة، فهم لا يعون التطور، ثم
يأتون فيقولون: "إن الأمر الفلاني لم يفعله الرسول (ص)" والأمر الآخر
لم يكن موجودا أيام الخلفاء، والشرعية الإسلامية لم تتطرق
للقضية الفلانية، إذن فهذه الأشياء ليست من الدين!".

إن هذا الدين الساذج يفسد ما يأتي لإصلاحه: فالمطلوب هو
أن أحد المذاهب لا بد أن يتطرق منذ عشر قرون بكل التفاصيل
الممكنة لأمر حديث لم يطرأ إلا منذ سنوات، فنعرف حكم
الإسلام في الكهرباء والإنارة والمغنطيس!! إنه لأمر تعيس
ومضحك أيها السادة.

أصر مع ذلك على أنه لا يحق لنا ونحن نذكر هذه النقائص
أن نقطع من حال الأهالي، فالسلم عموما، وأهالي الجزائر تحديدا

يقظون جدا، علينا فقط أن نعرف من أين تأتيهم: الفكرة القوية
والكلمة الطيبة والإصرار على التعليم والتكوين.

إن المدارس قد بدأت تأتي أكلها، والأهالي الذين بدأوا
يتخرجوا من المدارس الفرنسية هم خير برهان على ما نذهب إليه،
والفضل كل الفضل يعود إلى الحكومة الفرنسية التي نشد على
يدها وتناشدها المواصلة والإصرار في هذه المهمة النبيلة.

أيها المسلمون، ألا زلتم في ريب من النوايا الفرنسية؟ إلا
تكفيكم كل هذه المدارس والطرق والجسور، والأمن الذي
صرنا نعيش فيه، أليست كافية كلها لإقناعكم بالخير الذي
جلبته فرنسا معها؟ وأنا أعطيكم موعدا بعد سنوات حينما تنتشر
الآلات الزراعية فيعم الرخاء الذي لم تشهد من قبل.

انهضوا أيها المسلمون، هل خروجكم من نومكم الذي طال
قرونا صعب إلى هذا الحد؟ أتمثل الحكومة التي حكمنا، وأتمنى
لكم أن تفعلوا مثلي، كذلك الملك الذي اجتمعت حاشيته تسائله
عن فضله وتبل أصوله، وجمعهم في اليوم الموالي وأخرج سيفه
قائلا: "هذا هو نبل أصولي" ثم رماهم بالذهب وأعطاهم أفخر
اللباس وقال: "هذا هو فضلي، والفضل في فضلي أت من قوتي".

ترنم بها تلامذة نادي صالح باي بمناسبة توزيع الجوائز وهي
من إنشاء السيد ابن الموهوب وعرف بها جوق موسيقى
السيد بن محمد ابن كرات وبسطا نجي

العلم يحيى بالعمل	وفاتل المرئي الكسل
فسافروا نحو الأمل	وحاربوا كل بليد
يا أيها الأبناء الصغار	انتم لنا نعم الثمار
جدوا لتدركوا الفخار	فعاشق العلم سعيد
فعمروا المدارس	وجانبوا الأبا السـا
وزينوا المجالس	بالعلم واطلبوا المزيد
سيروا كغيركم إلى	نيل مناصب العـلا
لا تقنطوا فالله لا	يرد من خيرا يريد
السمو وفرغ الكمال	الستموا بنا رجال
بالمال تهدم الجبال	كذلك الجهل بييد
شجاعة شجاعة	عند الهجوم جملة
فان فيكم دولة	لرفع قدركم تريد
يكفيكم منها العمل	والمال في كل محل
لحرب جهل فداحل	فولوا لها هل مزيد

7 مقدمة

الجزء الأول

21 الفصل الأول: الأمن
31 الفصل الثاني: التعمير
43 الفصل الثالث: المدرسة
59 الفصل الرابع: البلديات المختلطة
87 الفصل الخامس: أوراق الشعب الجزائري
111 الفصل السادس: أمام أسوار التعصب
137 الفصل السابع: النخبة
173 خلاصة

الجزء الثاني: الحرب ضد الجهل

(خطب ومحاضرات ألقاها نادي صالح باي الأستاذ محمد المولود بن
موهوب)

179 الأهالي والحضارة
192 حضارة الوفاق
203 الأمانة والعرفان
209 أسباب الانحطاط